د. رضا السيد حسين

الصليبيون

وآثارهم في جبل عامل

دار مصباح الفكر

د. رضا السيد حسن

الصليبيون

وآثارهم في جبل عامل

دار مصباح الفكر

جَمِيعُ الحُقُوق مَحْفوظَة

١٩٨٧

دار مصباح الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب : ١١٣/٦٥٥٨
بيروت ـ لبنان

الإهـــداء

إلى كل مقاوم للاحتلال

أينما وُجد على الأرض العربية

رضا السيد حسن

مقدّمة

مضت على جبل عامل عصور عديدة من التخلف شلّت نشاطه وكبّلت إرادته وجعلته هدفاً للأمم الغازية تلعب بمصيره كيفما تشاء ويحلو لهواها. ولولا شعلة حضارية عتيدة دامت مع الزمن تنير دربه وروح وطنية عربية أصيلة تذكي همته وتشد قواه لرزح تحت أعباء همومه وظل يعمه[1] في عتمة الجهل والتأخر.

وجبل عامل يجابه في وضعه الراهن قضايا كبرى سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ويكشف عن ثروات دفينة وأوضاع استراتيجية هامة وإمكانات غزيرة لا تنضب مع كل ما يتهدده من أخطار جسام وما حيك حوله ويحاك حالياً من مؤامرات استعمارية صهيونية لاحتلال أرضه واستغلال مياهه وتفتيت قواه وتهجير شعبه والحيلولة دون ما يدفع عجلة التقدم به إلى الأمام.

وإذا كان لهذا البحث من هدف فهو التأكيد على أن هذه البقعة كانت وما زالت محط أنظار جميع الأمم الغازية على مرّ العصور والتي كانوا لمجرد المرور بها يسعون جاهدين للبقاء فيها ويقيمون الحصون والأبراج والقلاع لحماية أنفسهم وقهر سكان البلاد

---

(١) يعمه: بلا علامات يهتدي بها.

الأصليين وإذا كنت قد تناولت في بحثي هذا «الصليبيون وآثارهم في جبل عامل» فإنما لأشير إلى أن هذه المنطقة كانت محط أطماع الغرب قبل الصهيونية وما زالت محط أطماع الصهيونية أيضاً.

فالآثار الضخمة التي تركها الصليبيون تدل على أنهم ما بنوا ذلك صدفة أو في طريقهم إلى أماكن أخرى بل ليستوطنوا في بلادنا. ونحن ما أحوجنا في هذه الفترة بالذات التي نخوض فيها حرباً ضد محتل غازٍ طامع في أرضنا وخيراتنا إلى معرفة تاريخ هذا الجبل لأن معرفة التاريخ تزيد في فهمه وإيضاحه وجلائه، قال أوغست كونت[1]: «لا تتيسر معرفة معنى من المعاني معرفة جيدة إلا بالاطلاع على تاريخه» ولكن كونت لم يحدد ذلك المعنى، بيدَ أن الدراسات التاريخية أولى لأن الزمان لحمتها والتبدل طبيعتها كالشخص نزداد تفهماً لنفسيته الحاضرة وإدراكاً لتصرفه الراهن إذا عرفنا تاريخ حياته والظروف التي لامستها لذلك فقد اخترت «الصليبيون وآثارهم في جبل عامل» موضوعاً لهذا الكتاب لأنني لم أجد أحداً من قبل تناول هذا الموضوع بدراسة مستقلة، وحاولت أن تكون دراستي وافية وأن لا أترك أثراً إلا وأذكره، غير أن الظروف التي تمر بها منطقة جبل عامل منذ سنوات حالت دون تنفيذ رغبتي. فالآثار العمرانية التي تركها الصليبيون في بعض المناطق الحدودية كمثلث صور - إسكندرونة - علما الشعب والطرقات التي سلكوها أيضاً بحاجة إلى دراسة مستفيضة آمل أن تكون في المستقبل

(١) أوغست كونت: فيلسوف فرنسي (١٧٩٨- ١٨٥٧ م) تقوم فلسفته على تنظيم المجتمع على أسس قوية من المعرفة والعلم. عادل العوا التجربة الفلسفية ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

موضوعاً جديداً لبحث آخر، بعدما تزول الأسباب المانعة لذلك ولقد قسمت هذا البحث الذي وجدت صعوبة في إتمامه لأن المصادر العربية لم تعطِ الصورة الواضحة لذلك بينما الدراسات الأجنبية التي تناولت هذا الموضوع كتبت باللغة اللاتينية، ولم أستطع الاطلاع عليها باستثناء ما كتب باللغتين الفرنسية والإنكليزية ـ إلى أربعة فصول تناولت في الفصل الأول جبل عامل (اسمه ـ حدوده ـ مميزاته)،وفي الفصل الثاني الحركة الصليبية (ماهيتها وبواعثها وكيف وصلت القوات الصليبية إلى جبل عامل وردة الفعل الإسلامية عليها،وفي الفصل الثالث الآثار الصليبية على اختلافها من اجتماعية واقتصادية وثقافية إلى الحصون والقلاع، وفي الفصل الرابع نهاية الصليبيين في هذا الجبل، مع لمحة عن الأسلوب الدفاعي لدى الصليبيين.

ولقد جاء هذا البحث محاولة دقيقة لمعرفة آثار الصليبيين والتي ربما تجيء في بعض الأماكن ناقصة شأن كثير من الأمور والأفكار البشرية ذلك لأن النقص في كل ما يُرى ويدرك موجود والخطأ لا يستدرك كله، فقد بذلت في التدقيق والتحقيق طاقتي.

والله ولي التوفيق

رضا السيد حسن

بيروت ١٩٨٦/٣/٥

الفَصْل الأوَّل

جبل عامل

١ ـ اسمه
٢ ـ حدوده
٣ ـ مميزاته

أولاً: اسم جبلِ عامل

سميت بلاد جبل عامل أو عاملة في الكتب القديمة وأطلق عليها اسم بلاد بشارة في الكتب الحديثة. ودعيت بجبل الخليل وجبل الجليل كما ورد في تاريخ الكامل لابن الأثير وتاريخ أبي الفداء واليعقوبي ومعجم البلدان لياقوت وغيرهم[1].

وعاملة الذي يضاف إليه هذا الجبل اختلف المؤرخون في تحديده، إن كان رجلاً أو امرأة. هل هو من ولد سبأ أم من العمالقة؟ ففي مجمع البيان ورد: «في الحديث عن فروة بن مسيك سألت رسول الله (ص) عن سبأ أرجل أم امرأة؟ فقال: هو رجل من العرب ولد عشرة، تيامن[2] منهم ستة وتشاءم[3] أربعة. أما الذين تيامنوا فالأزد وكندة ومذجح والأشعرون وأنمار وحمير والذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسان». ثم قال في المجمع فالمراد بسبأ هنا القبيلة الذين هم أولاد سبأ بن يشجب بن قحطان وقيل

---

(١) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل ص ٢٤.
(٢) تيامن: اتجه جهة اليمن.
(٣) تشاءم: اتجه نحو الشام.

أيضـاً أن عاملة اسم امـرأة تسمى عاملة القضـاعيـة وهي أم الحارث بن عدي الذي تنسب قبيلته إليها، نزلوا بلاد الشام مع بني جذام ولخم وغسان[1] وفي العقد الفريد: عاملة هو الحارث بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ ولد الحارث الزاهر ومعاوية وأمهما عاملة بنت مالك بن ربيعة بن قضاعة فنسبا إلى أمهما ويقال عاملة هو الحارث نفسه[2].

وفي خطط الشام: ذكر الهمذاني مساكن من تشام من العرب «إلى أن قال» وأما عاملة فهي في جبلها مشرفة على طبرية إلى نحو البحر «إلى أن قال»: وجبل الجليل وأهلها قوم من عاملة[3] وجبل الجليل هو جبل عاملة.

ومن ذلك يستدل كما يقول السيد محسن الأمين: أن عاملة ولد سبأ لا من العمالقة. ولقد لقب بسبأ لامتداد سلطانه في الشرق واستيلائه على بابل ومصر وما بينهما من الأمصار ونقله الأموال والسبايا إلى اليمن وهو الذي بنى مدينة مأرب في الجنوب الشرقي من صنعاء وشيّد سدّها العظيم. وقد ورد في مجلة فرنسية لطيار فرنسي «مايرو» أن مدينة مأرب أو سبأ هي عاصمة السبائين كان لها حوض ماء عظيم جداً بناه الملك لقمان في القرن الثالث عشر ق. م. وإن هذا الحوض الذي أصلح في زمن الملكة بلقيس انفجر

---

(١) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٣٥.
(٢) نفس المرجع ص ٣٦.
(٣) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٣٦.

في القرن الرابع بعد المسيح فطفت مياهه على المدينة فهدمتها وبقيت على ما هي عليه من تاريخ تلك الحادثة وقد اكتشف العالم الفرنسي أرنود المدينة في سنة ١٨٤٣[١].

كانت قبيلة عاملة قبل الإسلام في حكم هرقل[٢] ملك الروم جاء ذكرها في غزوة تبوك[٣] فقال المؤرخون بلغ النبي (ص) أن هرقل أجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغسان[٤].

إذن فسكان جبل عامل يتحدرون من عاملة بن سبأ بن

---

(١) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل ص ٢٥.

(٢) هرقل إمبراطور بيزنطي (٦١٠ - ٦٤١) خاض حرباً صليبية ضد الفرس سنة ٦٢٢ استهدفت إنقاذ المسيحية واستعادة صليب الصلبون. أرسل إليه كسرى ملك الفرس رسالة تهديد واحتقار قائلاً له: من كسرى العظيم أعظم الآلهة وسيد العالم كله إلى عبده الفاجر هرقل عديم الشعور والإحساس.. انظر كيف قضيت على الروم!! أين إلهك الذي تثق به؟ لماذا لم يتدخل لإنقاذ قيصرية وبيت المقدس والإسكندرية؟ هل تظن أنني لن أخرب القسطنطينية؟ على كل حال أقولها لك أنني على استعداد لأن أغفر لك جميع أخطائك إذا أنت قدمت إليّ ومعك زوجتك وأطفالك وعندئذٍ سأحسن إليك وأرحمك وأمنحك أرضاً بها أشجار الكروم والزيتون.
دكتور سعيد عاشور، تاريخ الدولة البيزنطية ص ٨٢.

(٣) تعتبر غزوة تبوك وما يليها من شمال الحجاز آخر غزوة غزاها النبي «صلعم» بنفسه. ففي رجب من العام التاسع للهجرة عزم رسول الله على تجهيز جيش بقيادته لغزو المناطق الشامية على تخوم الحجاز منذ أن بلغته الأنباء بقيام صاحب تبوك بحشد جموع كبيرة من الروم ومتنصرة للعرب تاريخ الدولة العربية عبد العزيز سالم ص ٤٠٢ عن ابن هشام ص ٥١٦.

(٤) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٣٧.

يشجب بن يعرب بن قحطان وهي قبيلة هاجرت من اليمن إلى أطراف الشام قبل الميلاد بـ ٣٠٠ سنة على وجه التقريب بعد حادثة سيل العرم وانهيار سد مأرب وضياع مملكة سبأ المعروفة في التاريخ وباسمه سمي الجبل[١].

تسمية جبل عامل ببلاد بشارة:

وأما تسمية جبل عامل ببلاد بشارة فهناك خلاف أيضاً في نسب من سميت باسمه، فمن المؤرخين من قال إنه بشارة بن مقبل القحطاني وهذا القول انفرد به الشيخ علي السبيتي وتابعه شبيب باشا الأسعد علماً بأن الشيخ السبيتي لم يذكر المصدر الذي نقل عنه فأصبح القول غير مؤكد كما يقول السيد محمد جابر آل صفا[٢] لعدم توفر الأدلة على صحته.

وقيل أيضاً إنه حسام الدين بن بشارة بن أسد الدين بن مهلهل بن سليمان بن سلامة العاملي وقال السيد محسن الأمين الحسيني إنه من رهط عاملة بن سبأ.

وهذا الأمير كما يقول ابن فتحون حضر مع الملك الناصر بن صلاح الدين الأيوبي فتح حصن هونين وأقطعه الملك خيط بانياس وورد ذكره في تاريخ ابن شداد[٣] عند حلف اليمين للملك

---

(١) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل ص ٢٥.

(٢) نفس المرجع ص ٢٨.

(٣) ابن شداد هو بهاء الدين بن شداد عاصر صلاح الدين الأيوبي وعيّنه قاضياً عسكرياً في سنة ٥٨٤ هـ ولازمه طوال الحقبة الأخيرة من حياته التي قضاها =

الأفضل بن صلاح الدين يوسف بن أيوب في عكا بعد وفاة أبيه وظهر من كلامه أنه كان من أكابر أمراء الدولة.

ومما تتناقله الألسن في جبل عامل ونص عليه بعض الباحثين أن قرية زبقين في قضاء صور كانت مركز إمارته حيث فيها من الآثار ما يدل على ذلك.

ويقال أيضاً إن محمد بن هزاع الوائلي القحطاني[1] كان معاصراً للأمير بشارة أو لأحد أعقابه وصهراً لهم وإليه انتقلت الإمارة في جبل عامل بعد انقراض سلالة الأمير بشارة[2].

وقيل أيضاً إن بشارة المنسوبة إليه «بلاد بشارة» هو الأمير بشارة بن معن[3]. أما أصل وجود «آل بشارة» بهذه الديار أي في جبل عامل هو أحمد بن حويشان وأخوه أتيا من بادية نجد ونزلا بغوطة دمشق[4].

= في الشام أي من ٥٨٤ - ٥٨٩ هـ (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) لابن شداد ص ١١٠.

(١) هزاع هو الجد الأول لآل علي الصغير يتصل نسبه ببني تغلب القبيلة الوائلية المعروفة.

(٢) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل ص ٢٨.

(٣) آل معن: أسرة لبنانية تنتمي إلى معن الأيوبي حكمت لبنان من ١٥١٦ بعد معركة مرج دابق بين العثمانيين والمماليك وانتصار العثمانيين حتى ١٦٩٧ وعدد حكامها تسعة أشهرهم الأمير فخر الدين الثاني «١٥٩٠ - ١٦٣٥» وآخرهم الأمير أحمد المعني الذي توفي سنة ١٦٩٧ وانتقل معه الحكم إلى الشهابيين.

(٤) الشيخ علي الزين، مع التاريخ العاملي ص ٩٥ - ٩٧.

يقول الشيخ علي السبيتي في رده على فانديك الأمريكاني الذي حدد جبل عامل: إن هذه البلاد نسبت إلى بشارة بعد وقعات حطين وصور وتبنين وقلعة شقيف أرنون وبعد تسليم جميع البلاد لصلاح الدين الأيوبي فأعطاها صلاح الدين لمحمد بن بشارة أحد قواده الأعراب وجعلها له من خط بانياس إلى البحر ومن الناقورة إلى الأولي فسميت به ونسبت إليه[1].

وهكذا كانت نسبة العاملي أولاً إلى القبيلة ثم صارت تقال هذه النسبة أعني عاملي إلى من سكن هذه الجبال من تلك القبيلة وغيرها واستمر ذلك إلى اليوم ولم تعد تعرف النسبة إلى القبيلة.

ثانياً: حدود جبل عامل

اتفق المؤرخون على تحديد جبل عامل شرقاً واحة الحولة إلى نهر الغجر ووادي التيم، وشمالاً نهر الأولي المعررف قديماً بنهر الفراديس الفاصل مجراه بين مقاطعتي الشوف وجزين بالقرب من صيدا، وغرباً البحر الأبيض المتوسط، أما من جهة الجنوب فهناك خلاف لا حاجة للإسهاب فيه. إذ يقول البعض ومنهم المؤرخان الشيخ سليمان ضاهر في كتابه «قلعة الشقيف» ومحمد جابر آل صفا في كتابه «تاريخ جبل عامل» إن حدوده القبلية تمتد من نهر القرن بالقرب من طرشيحا وضواحي عكا إلى قرية الزيب من أعمال فلسطين، وقد أكدّ الشيخ علي السبيتي مؤرخ جبل عامل في كتابه «الجوهر المجرد» في شرح قصيدة علي بك الأسعد: «حد جبل عاملة القبلي النهر

---

(١) محسن الأمين خطط جبل عامل ص ٥٠.

المسمى بنهر القرن الجاري من شمال طرشيحا إلى البحر جنوب قرية الزيب وكأنه المسمى قديماً بنهر أبي فطرس أو نهر فطرس». أما العلاّمة الجليل السيد محسن الأمين فقد اعترض على جعل حدود جبل عامل القبلية تمتد من نهر القرن... لأنه يدخل في جبل عامل ما ليس منه(١).

وقال الشيخ علي السبيتي في بعض مجاميعه التي بخطه(٢): «حد بلاد عاملة من الجنوب وادي القرن الذي هو إلى الجنوب من الجبل الذي يسمى لبون الذي في سفحه قرية البصة ومزارعها إذ هي بالقطع تابعة لبلاد عاملة وفي جانب القرن إلى الجنوب قلعة جميلة العمران حسنة الأبنية عالية فيها لولب ماء إلى ماء الوادي خالية الآن من السكان مهدّمة الحيطان وفي جانب القرن الشمالي أرض جاليل وفيه مزارع وخرب قديمة كانت مغمورة بالزيتون وقد تلف لعدم الاعتناء به...».

وقال أيضاً: «لم أر من تعرض لتحديد هذه البقعة ولا من ألم برسم هذه الرقعة سوى بعض أساطين الجغرافين كأمثال الفيلسوف فانديك الأمريكاني المعاصر في كتابه «المرآة الوضية في الكرة الأرضية» المطبوع في بيروت وقد ألمّ بها إلماماً غير تام الشروح والنعوت على عادته في الإيماء إلى البلدان إيماءً فقال: أما بلاد بشارة فهي إلى الجنوب الشرقي من صور وأكثر أهلها من المتاولة وقاعدتها تبنين وفيها قلعة بناها «هيو» صاحب طبريه سنة ١١٠٧م يريد

(١) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٤٧.
(٢) نفس المرجع ص ٤٨.

أعداد معقل لغزو صور وما يليها لأن تلك البلاد لم تكن سلمت بعد للإفرنج واستولى على هذه القلعة صلاح الدين الأيوبي بعد وقعة حطين سنة ١١٨٧ م ومن قرى هذه البلاد بنت جبيل وحداثا والطيبة وقانا والزريرية.. ويتبع بلاد بشارة مرج العيون وهو بينها وبين وادي التيم عن يسار نهر الليطاني الفاصل بينها وبين بلاد الشقيف.

هذا وقد اعترض على فانديك في هذا التحديد لبلاد بشارة الشيخ علي السبيتي قائلاً: بأن جعل صور خارجة عن بلاد بشارة غير صواب لأن هذه البلاد إنما نسبت لبشارة بعد وقعات حطين وتبنين وقلعة الشقيف وبعد تسليم جميع البلاد لصلاح الدين الأيوبي فأعطاها صلاح الدين لمحمد بن بشارة أحد قواده الأعراب وجعلها له من خيط بانياس إلى البحر ومن الناقورة إلى نهر الأولي فسميت به ونسبت إليه لم يسكنها أحد سوى صيادي سمك في صور إلى أن كثر أولاد نصار في شحور واقتسموا البلاد فعمّروا تبنين وصور وهونين ودوبيه ثم انتزعها منهم أحمد باشا الجزار والي عكا سنة ١١٩٦ م بعد قتل ناصيف.

يتابع الشيخ السبيتي اعتراضه على فانديك قائلاً: كلام فانديك ليس صريحاً في خروج صور عن بلاد بشارة مع كون خروجها عنها محتملاً وكون الذي أعطاه صلاح الدين البلاد اسمه محمد بن بشارة لا مستند له مع أنه يقتضي أن تسمى بلاد ابن بشارة لا بلاد بشارة.

واعترض السبيتي أيضاً على فانديك بأن كون بلاد بشارة في الجنوب الشرقي من صور غير صواب بل هي من البلاد غرباً

فبعض البلاد في الجنوب الشرقي منها وبعضها في الشمال الشرقي منها.

ثم قال الشيخ السبيتي: إن عمور من قسم سوريا الذي أوله اللجون من مرج ابن عامر وآخره منقطع الشامات إلى الشمال وجبال عاملة في القسم الغربي على ساحل البحر(١).

والحولة التي ورد ذكرها في جبل عامل هي أرض منخفضة تفصل بين جبل عامل وجبل بانياس وآخر جبل من ناحية الحولة يسمى جبل هونين، كما يؤخذ عن تاريخ الأمير حيدر الشهابي أن قصة جزين وملحقاتها وجبل الريحان حتى مشغرة من أعمال البقاع كانت تابعة لجبل عامل ويمكن أن يكون عد مشغرة من جبل عامل مبنياً على التوسع والتساهل، ويدل على ذلك أن صاحب أمل الآمل(٢) عد في جملة علماء جبل عامل من ينسب إلى كرك نوح وبعلبك وطرابلس الشام كابن منير الطرابلسي وجماعة من بيت نور الدين الدمشقيين، عدهم من العامليين، أما جزين وما والاها فهي بحسب القديم من جبل عامل قطعاً كما يدل عليه نسبة علمائنا منها إلى جبل عامل وقد عدّ شيخ الربوه من أهل القرن الثامن في كتابه «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» جبل جزين من جبال عاملة على ما يظهر.

أما صيدا فيشك العلّامة السيد محسن الأمين بدخولها في جبل عامل قائلاً: أما نفس مدينة صيدا فدخولها في جبل عامل مشكوك

---

(١) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١.

(٢) صاحب أمل الآمل، العلّامة الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي.

فيه، وأما الحولة فخروجها عن جبل عامل معلوم من العرف. وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان: تبنين بكسر أوله وتسكين ثانيه وكسر النون وباء ساكنة ونون أخرى بلد في جبال بني عاملة المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور وقال أيضاً: هونين بالضم ثم السكون ونون ثم باء ونون أخرى بلد في جبال عاملة مطلة على نواحي مصر وهذا القول هو اشتباه وتحريف من النساخ أو من ياقوت[1].

أما عن صفد فقد وردت في معجم البلدان لياقوت: صفد بالتحريك مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص وهي من جبال لبنان.

أما قوله: المطلة على حمص فهذه صفة لجبال عاملة مطلقاً لا لمحل صفد لبعد ما بينهما.

ويبلغ متوسط طول هذا القطر من الجنوب إلى الشمال نحو من ثمانين كيلومتراً ومتوسط عرضه «إذا جعل منتهاه من الشرق الجنوبي ضفة بحيرة الحولة ومن الشرق الشمالي منتهى جبل الظهر» إلى ساحل البحر نحو من أربعين كيلومتراً وبذلك تكون مساحته تزيد عن ثلاثة آلاف كيلومتراً مربعاً[2].

ثالثاً: مميزات جبل عامل

الإنسان بطبعه مفطور على حب وطنه وإعلاء شأن أمته والتفاخر بعظماء عشيرته والمباهاة بأمجاد قومه[3].

---

(١) خطط جبل عامل ص ٥١ ـ ٥٢.
(٢) الشيخ علي الزين، مع التاريخ العاملي ص ٣٨.
(٣) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل ص ٢١.

ولا عجب أن يحتث بين طيات الكتب عما امتازت به هذه الرقعة من وطني عبر التاريخ لأضعها أمام القارىء لتتخذ من ذلك ناشئة هذا الجيل ومن يأتي بعدهم مثالاً يستنيرون بمناهجه ودرباً يسلكون عليها والتاريخ درس وتحليل وعبر.

بين إسهام في حضارة القديم وبذل بناء للعطاء الحديث تبرز في جبل عامل حلقة مفقودة طويلة في مداها الزمني، إنها الفترة بين قديم العالم وحديثه في التاريخ.

وجبل عامل هذا العربي الصريح بنسبه كان راغباً أن يحيا في خفية وأن ينتج لنفسه ما كانت المفاخر همّ ذاته ما عاش يوماً على هامش العطاء وإنما على هامش الجلبة وصخب التاريخ[1]. ولقد شكّل نتاج الفكر في جبل عامل ميزات اكتنزها من واقعه وعبر التاريخ. لقد أعطى يوم توقفوا عن العطاء وبذل في سبيل ذاته عصامياً مترفعاً عن التزلف فكان الصدق في العاطفة ميزته الأولى والتجرد في العلم خاصةً لا تبارى. في سبيل الكشف عن ميزاته أعود إلى كل من كتب في هذا الحقل لاستخلص الميزات التالية:

أولاً: ـ طيب هوائه ونقاوة وعذوبة مائه وطيب تربته: ليس بشديد الحر كالعراق والحجاز واليمن ولا بشديد البرد كما في أكثر بلاد فارس والترك والفرنجة وإن اشتد الحر في بعض سواحله فإنه لا يبلغ شدته في البلاد الحارة وهواؤه ليس بشديد الرطوبة ولا بشديد اليباس، أمطاره وفصوله الأربعة معتدلة.

---

(١) الشيخ علي الزين، مع التاريخ العاملي ص ٤٤.

ثانياً: ـ امتياز سكانه بالذكاء واعتدال القرائح: ولعل ذلك ناشيء عن السبب الأول لتأثير الإقليم في الطباع واعتدال الهواء في اعتدالها.

ويشهد بذلك كما يقول العلاّمة السيد محسن الأمين[1] أنه ما حلّ العامليون في قطر من الأقطار إلا وتعلموا لغة أهله بأقرب وقت وتكلموا بلهجتهم بحديث لا يمتازون عنهم ولا يظنهم السامع غرباء بل يخالهم من أهل تلك البلاد في حين أننا نرى بعض من يسكن جبل عامل من غير العرب الذين تبقى العجمة[2] بادية على لغتهم العربية التي تعلموها ونرى الأمي من العامليين الذي لم يعرف غير الفلاحة والزراعة يهاجر إلى أمريكا أو أفريقيا أو أستراليا لطلب الرزق فيتعلم بأقرب وقت لغتهم ويجيدها ويتعلم القراءة والكتابة بالحروف اللاتينية والعربية ويتعاطى التجارة والصناعة ويتقدم في ذلك فضلاً عن المتعلمين منهم. . .

وكم نبغ من العاملين في جميع الحقول ففي الاختراع حسن كامل الصباح الذي ظهر نبوغه في أمريكا والذي اخترع الكهرباء بطريقة أذهلت الأمريكيين.

ثالثاً: ـ يمتاز بكثرة من نبغ، ففي أوائل الفتح الإسلامي وبعده نبغ من العامليين الذين هم من نسل عاملة السبئيّ الشعراء والعلماء والأمراء ذكر منهم العلاّمة السيد محسن

(١) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٥٦.
(٢) العجمة برفع العين وسكون الجيم: اللكنة وعدم الإفصاح في الكلام.

الأمين(١) الحسن بن أحمد بن محمد بن بكار بن بلال العاملي وأبو سلمة الحكم العاملي الشامي الأزدي وأبو عبدالله العاملي وحسام الدين بشارة العاملي وعدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع الشاعر المشهور لدى بني أمية والذي كان مداحاً لهم خاصة الوليد بن عبد الملك مات بدمشق وكان معاصراً لجرير اجتمع معه عند أحد ملوك بني أمية فقال جرير:

يقصر باع العاملي عن العلى

ولكن ....

فقال عدي:

أمك يا ذا أنبأتك بطوله

أم أنت امرؤ لم تدر كيف تقول

فقال جرير:

بل أنا امرؤ لم أدر كيف أقول

ومن شعراء جبل عامل أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الذي اختلف المؤرخون في نسبته إلى جبل عامل لأنه ولد في حوران وعاش فيها غير أن الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي مؤلف كتاب «أمل الآمل» تثبت من مكان ولادة الشاعر أبو تمام في حوران ولكنه زاد عليها بأن الشاعر حطّ رحاله في سنة مجدبة من سني القحط في جبل عامل وذكر صاحب «أمل الآمل» إنه بالقرب من المالكية مكان يسمى دار حبيب وبئر يسمى بئر حبيب ولكنه لم يتأكد مما ذكر.

---

(١) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٣٩ - ٤٠ - ٤١.

ولكن الحقيقة أنه بين بلدتي[1] عيترون والمالكية في فلسطين المحتلة بالقرب من منطقة زراعية تسمى القسيس دار تعرف بدار حبيب ما زال أهالي عيترون يذكرونها ويملكون أراض زراعية فيها. والمؤرخ صاحب «أمل الآمل» لم يثبت ما ذكر قائلاً[2] إن صحت هذه الرواية كانت دليلاً على أن البلد العاملي عريق بالأدب وفنون القريض وإني أؤكد صحة ما رواه الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي.

يقول السيد محسن الأمين[3] نقلاً عن صاحب كتاب «أمل الآمل»: سمعت من بعض مشايخنا أنه اجتمع في جنازة في قرية من قرى جبل عامل سبعون عالماً مجتهداً وما قاربه وقال: إن عدد علماء جبل عامل يقارب ١/٥ عدد علمائنا المتأخرين وكذا مؤلفاتهم بالنسبة إلى مؤلفات غيرهم مع أن بلادهم بالنسبة إلى بلاد غيرهم أقل من عشر العشر أعني جزءاً من مائة وقد كثرت مؤلفاتهم في كل فن حتى أن أفران عكا بقيت تشتعل ستة أيام بعد حادثة الجزار المشؤومة ولم ينجُ منها إلاَّ ما حمله الهاربون إلى بلاد غير بلادهم[4] ومن الكتب التي نجت من يدي الجزار (أمل الآمل) و (المدارك) و (المكاسب)

---

(١) عيترون: بلدة الكاتب: قرية حدودية في جنوب لبنان يحدها صلحة والمالكية من أعمال فلسطين جنوباً وشرقاً وبنت جبيل وعيناتا غرباً وشمالاً بليدا.

(٢) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل ص ٢٨٣.

(٣) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٥٧.

(٤) المصدر السابق، صفحة ٥٧.

و (الوسائل) و (أدب المفيد والمستفيد) وكانت ولا تزال تعتبر من أوثق المصادر وأعذب الموارد لطلاب العلم والأدب.

رابعاً: ـ يمتاز جبل عامل بميزة هامة في التاريخ هي عراقة العامليين في العروبة للأسباب التالية:

١ ـ إنهم من نسل عاملة بن سبأ الذين تشاءموا وهذا كافٍ في عراقتهم للعروبة ما خلا الأسرة الصعبية التي تفردت بانتمائها لأسر الأكراد[١].

٢ ـ عاداتهم العربية في إكرام الضيف والافتخار بالجود والكرم وحفظ الجوار وصيانة العرض وركوب الخيل والسباق عليها واقتناء الخيل العربي.

٣ ـ لغتهم العربية التي ألفاظها أقرب إلى اللغة الفصحى من كل لفظ.

٤ ـ سلائقهم العربية المعتدلة في النظم والنثر كما يظهر لمن يقرأ أشعارهم وأنثارهم ويطالع مؤلفات علمائهم قديماً وحديثاً[٢].

خامساً: ـ امتياز خامس لجبل عامل: ويظهر ذلك في تقدم جبل عامل باعتناق الإسلام ديناً على جميع الناس سوى أهل الحجاز[٣].

سادساً: ـ محافظة أهله من جميع الطبقات على الطاعات والعبادات وشعائر الإسلام وثباتهم على العقائد الدينية واتصافهم بالتقوى والورع إلا ما ندر فقد كانوا من زمن

---

(١) الشيخ علي الزين، مع التاريخ العاملي ص ٩٤.
(٢) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٥٣.
(٣) نفس المرجع ص ٦٥.

بعيد إلى عصرنا وهم يمرنون أطفالهم لا سيما ابن سبع سنوات وما فوق على الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان، ولم تكن ترى في جبل عامل من أقصاه إلى أدناه من يترك الصلاة أو يفطر في شهر رمضان أو يتناول شيئاً من المسكرات لا سراً ولا جهراً. وكان الفلاح يحرث الأرض والمطر على رأسه والبرد قد أيبس يديه فإذا فرغ يصلي وهو في أشقى حال ولا يترك الصلاة كما أن الحاصد يحصد في تموز وهو صائم حتى يكاد أن يهلك من العطش ولا يفطر[1].

سابعاً: ـ ميزة هامة في تاريخ جبل عامل هي أن الحركة الفكرية والأدبية طويلة العمر وما زالت من أبناء الحياة رغم مرورها في أطوار وأدوار اكتسبتا من كل دور صفة واكتنزت خصائص هامة. وهي في تقدم مستمر ولم تكن مرحلية تزول بزوال المرحلة التي تمر بها بل هي متجددة ومتطورة.

ثامناً: ـ تتميز منطقة جبل عامل عن غيرها من المناطق اللبنانية بطبيعة ثقافية وفكرية خاصة هي نتيجة قرون عديدة ناتجة عن الوضع الديني الخاص به وأعني بذلك التمسك بالإسلام ديناً وشريعة وقانوناً يطبقونه في حياتهم اليومية. فرغم أنهم كانوا محاطين في بعض مناطق جبل عامل بمجموعات بشرية غير مسلمة لم تكنَّ لهم أي عطف فقد

(١) محمد كاظم مكي، الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل ص ٤٤.

اعتمدوا على أنفسهم لحماية أنفسهم في المجالين العسكري والفكري ومن هنا كانت لهم مدارسهم الخاصة العريقة المنتشرة في كل قرية من قراهم ومن أهمها مدارس الكوثرية وأنصار والنميرية والنبطية (في قضاء النبطية) ومدارس حناويه وجويا (قضاء صور) ومدارس بنت جبيل وعيناتا وشقرا (قضاء بنت جبيل) ومدرسة مجدل سلم (في قضاء مرجعيون) وكان هدفها الأول القضاء على الأمية بقدر ما تستطيع وما تسمح به إمكانياتها المحدودة ومن ثم تخريج دفعات من الشعراء والأدباء والمثقفين وغالباً ما كانت هذه الدفعات تدرس على نفقتها وأخيراً إيصال من تسمح لهم مواهبهم وكفاءاتهم وأحوالهم المادية إلى التفرغ لدراسة الشريعة الإسلامية والإلمام بها لذلك نلاحظ أن حركة الأدب بكل مظاهره خاصة العلوم الفقهية لم تهمد في جبل عامل[1] إضافة إلى هذه المميزات فإن للموقع الجغرافي لجبل عامل أهمية كبرى لأسباب عديدة أهمها:

١ ـ إنه صلة الوصل بين بلاد الشام الوسطى والشمالية بالمناطق الجنوبية منها بواسطة سهل البقاع أو عن طريق الساحل عبر صيدا وصور والناقورة. وهذه المنطقة كانت تصل بين الإمارات والمسالك الفرنجية

---

(١) خلاصة مقابلة أجريتها مع المؤرخ السيد حسن الأمين في منزله في بيروت صباح الثلاثاء الواقع في ٢ آب سنة ١٩٧٧.

في الشمال كإمارة الرها وإمارة أنطاكية وطرابلس وبين مملكة القدس في الجنوب.

٢ ـ كون جبل عامل قريباً من تخوم مملكة دمشق فكانت وديانه ومسالكه معبراً للفرق العسكرية المهاجمة من دمشق للمناطق التابعة للإفرنج.

٣ ـ أهمية ساحله عبر مرفأي صيدا وصور اللذين كانت تلجأ إليهما السفن التجارية عند اشتداد العواصف البحرية والأهمية الخاصة لمرفأ صور جعلت المسلمين يبذلون جهدهم في كافة المراحل التاريخية للحفاظ عليه وعدم وقوعه بيد الغزاة لأن بسقوطه تنكفيء الحركة التجارية في مملكة دمشق نحو الداخل.

الفَصْل الثَانِي

الحركة الصليبية

أولاً: ماهيتها

ثانياً: بواعثها.

أ - الباعث الديني

ب - الباعث الاقتصادي

ج - الباعث الاجتماعي

د - الباعث السياسي.

ثالثاً: وصول القوات الصليبية إلى جبل عامل.

أ - سقوط صيدا

ب - صمود صور

ج - سقوط صور

رابعاً: ردة الفعل الإسلامية

أولاً: ماهية الحركة الصليبية

تعتبر الحروب الصليبية ذروة الإحياء الديني، الذي بدأ في غرب أوروبا أثناء القرن العاشر الميلادي[1] والذي ارتفع شأنه أثناء القرن الحادي عشر الميلادي وهذه الحروب ذات أهمية كبرى في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب واعتبرها المعاصرون لها في مظهرها الأول «حروباً مقدسة» وطريق الحج، إلى كنيسة القيامة «قبر المسيح» ومن المؤرخين من نظر إليها على أنها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب وهو الصراع التقليدي القديم الذي ظهر بوضوح في النزاع بين الفرس واليونان ثم بين الفرس والروم علماً بأن الصراع القديم بين الشرق والغرب لا يمكن ربطه بأي عامل ديني لأنه دار في عصور كان الشرق والغرب جميعاً وثنيين. ويرى هذا الفريق أن الصراع بين الشرق والغرب ظل كالبركان يهدأ حيناً ويثور أحياناً حتى كانت نهاية القرن الحادي عشر فاشتد غليانه وثوراته وعندئذٍ وجد منفساً في الحرب الصليبية وزاد من حدة ثورات البركان الخلاف الديني بين الإسلام والمسيحية[2] وإذا كانت

(١) نبع الإصلاح الديني من دير كلوني ببرجنديا أوائل القرن العاشر الميلادي. وكان يهدف إلى نشر العفة والتقوى والنظام في الأديرة.

(٢) سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ١١.

الحروب السابقة بين العرب والبيزنطيين لا تخرج عن كونها حرباً صليبية بين المسلمين والمسيحيين من الوجهة الدينية، فإنها لم تعرف في كتب المؤرخين بأنها حروب صليبية، ولكن الحروب التي شهدها القرن٦هـ/١٢م بين المسلمين والمسيحيين هي التي عرفت باسم الحروب الصليبية، ذلك أن المسيحيين كانوا يضعون إشارة الصليب على كتف سترتهم اليمنى تنفيذاً لتعليمات البابا أوربان. وهناك فريق آخر من المؤرخين رأى أن الحركة الصليبية ليست في حقيقة أمرها إلا الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات الكبرى التي صحبت سقوط الأمبراطورية الرومانية الغربية(١) ذلك أن سقوط تلك الامبراطورية سنة ٤٧٦ م أعقبته موجات من الهجرات التي قام بها المواطنون في بلاد الامبراطورية الغربية وقد تفاوتت هذه الهجرات في مداها الزمني وفي اتجاهاتها وأثرها ولكنها كلها أتت نتيجة الشعور بالفزع والقلق الذي نجم عن سقوط الامبراطورية ودخول عناصر جديدة من الجرمان داخل أراضيها.

وهناك فريق ثالث من المؤرخين يرى أن الحركة الصليبية ليست إلا انطلاقة كبرى نتجت عن عملية الإحياء الديني الذي بدأ في غرب أوروبا في القرن العاشر. ذلك أن حركة الإصلاح الكونية كانت في حقيقة أمرها حركة إحياء ديني ترتب عليها عودة البابوية إلى سطوتها القديمة وتحقيق نوع من الاشراف المركزي الدقيق على كافة الكنائس الغربية وتقوية الجهاز الكنسي وربط أطرافه بالمركز الرئيسي في روما ولذلك ظهر شعور قوي في القرن الحادي عشر

(١) King: The Knigts horpi tallers in the holy land p. 15.

بالرغبة في العثور على منفس خارجي تستهلك فيه تلك الطاقة الهائلة التي نجمت عن حركة الإحياء الديني في غرب أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر[1] وإذا كان الغربيون قد عرفوا الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالشام منذ القرنين الرابع والخامس إلا أن مشاريع الحج ظلت فردية وإذا خرجت جماعة من غرب أوروبا للحج فإن عدد أفرادها كان لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة[2] أما القرن الحادي عشر فقد عرف لأول مرة الحج بالجملة إذ كان يخرج تحت زعامة أسقف أوبنيل بضع مئات قاصدين الأراضي المقدسة بالشام. ويرى بعض المؤرخين أن الحروب الصليبية التي بدأت بالدعوة لها سنة ١٠٩٥م ليست إلاَّ استمرار لحركة الحج الجماعي في بيت المقدس. مع حدوث تطور في الأسلوب هو أن الحج الجماعي صار حربياً بعد أن كان سلمياً[3] فإذا كان عدد الحجاج الذين خرجوا مع رئيس أساقفة ماينز قد بلغوا سبعة آلاف حملوا معهم بعض الأسلحة للدفاع عن أرواحهم في الطريق فهذا يعني أنه لا يوجد أي فارق بين هذا الموكب وأية حملة صليبية سوى في الأسلوب الذي اتبعه كل فريق في بلاد الشام.

أما بيت المقدس فكانت قد سقطت أمام جيوش الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٦٣٧م وظلت في يد الحكام المسلمين حتى نهاية الحرب الصليبية ومع ذلك فإن ما حدث من الاتصال المستمر بين الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس وبين المسيحيين في الغرب إنما يرجع إلى

(١) سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٣.

(٢) Togra: Hist des Croisads p.p 3 - 11.

(٣) سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٣.

تسامح الفاتحين المسلمين[1] وشارلمان كان وثيق الصلة ببيت المقدس إذ أرسل إليه بطريرك بيت المقدس سنة ٨٠٠ م مفاتيح المدينة وعلمها وقد اعترف هارون الرشيد بما حدث من التنازل الرمزي عن المدينة[2] أما المغزى السياسي فهو إيجاد حلف عباسي أوروبي في وجه الأمويين في أسبانيا. وقد بقي هذا الاتصال أيضاً في القرن العاشر، غير أن الصلة بدأت تنقطع في القرن الحادي عشر. فما اشتهر به الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله من التعصب ترتب عليه تدمير كنيسة القيامة فأنهى بذلك حماية الفرنجة لها وذلك سنة ١٠١٠ م[3] وانتقل إلى الأمبراطورية البيزنطية في سنة ١٠٢١ م أمر رعاية الأماكن المقدسة التي ظلت مصدر نزاع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية وترتب على هذا التغيير أن صار قدوم الحجاج من الغرب أمراً شاقاً وعسيراً. فالبيزنطيون لا سيما بعد حدوث الانشقاق الديني سنة ١٠٥٤ م لم يحرصوا على أن يجعلوا طريق الحجاج سهلاً وهيناً.

كما كان لهجوم السلاجقة وانتصاراتهم على الدولة البيزنطية واحتلال الأقسام الشرقية من الأمبراطورية وانتصارهم في معركة «منزكرت» «ملاذكرد» على البيزنطيين وانتزاعها من بيزنطة بعد احتلال دام أكثر من قرن. كل ذلك جعل الدولة البيزنطية في خطر حقيقي ومهددة بالزوال وبما أنها خط الدفاع الشرقي عن أوروبا

---

(١) أرنست باركر، الحروب الصليبية نقله إلى العربية السيد الباز العريني.
(٢) شارلمان، ترجمة العريني ص ٣٠٣.
(٣) إن الحاكم بأمر الله الفاطمي لم يختص بسياسته فئة معينة من الناس. ولذا لم تسلم طائفة من الطوائف من اضطهاده وظلمه. النجوم الزاهرة. ابن تغرى بردى جـ ٤ ص ١٧٨.

المسيحية في وجه المسلمين فإن أوروبا شعرت بخطر السكوت فوسعت نطاق حروبها الصليبية من الأندلس غرباً إلى سوريا ولبنان وفلسطين شرقاً[1].

هذه هي أهم النوافذ التي أطل الباحثون بها على الحروب الصليبية وبالتالي فإنها: «حركة كُبرى نبعت من الغرب الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين وبخاصة في الشرق الأدنى بقصد احتلالها. وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوروبا في القرن الحادي عشر واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتغيير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق[2].

ثانياً: بواعث الحركة الصليبية

يتضح من التعريف السابق للحركة الصليبية أن لهذه الحركة بواعث حقيقية وأسباب قوية انبعثت من صميم المجتمع الأوروبي الغربي.

ولا بد من إلقاء نظرة سريعة على هذه البواعث التي أدت بغرب أوروبا إلى القيام بحركة من أهم الحركات في تاريخ البشرية بوجه

---

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) سعيدعاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٥.

عام وفي تاريخ العصور الوسطى بوجه خاص.

أ ـ الباعث الديني:

اعتاد مؤرخو المدرسة القديمة أن ينظروا إلى الحروب الصليبية من زاوية الدين. متجاهلين ما فاضت به الحركة الصليبية من بواعث سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية. من ذلك أن ريان Riant عرّف الحروب الصليبية بأنها: «حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام»(١).

غير أن الدكتور سعيد عاشور في كتابه: «تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب» يرد على هذه النظرة قائلاً: «إن الحركة الصليبية لها في اسمها وطريقة الدعوة لها والروح التي كيفت بعض أحداثها ما يحمل الصفة الدينية ولكن ليس معنى ذلك أن التيار الديني هو المسؤول الوحيد عن إثارة تلك الحركة والقوة الوحيدة الموجهة لها. إذ إن المدقق في تاريخ الحروب الصليبية ليسترعي نظره أن الروح الصليبية ذاتها كثيراً ما فترت في بعض حلقاتها وأن الباعث الديني كثيراً ما ذاب وسط التيارات الاقتصادية بوجه خاص(٢).

ويتابع الدكتور عاشور قوله: «إن الدخول إلى تاريخ الحركة الصليبية من هذا الباب وهمي كفيل بأن يصرف الباحث عن المدخل الحقيقي، للموضوع فالقول بأن الحروب الصليبية أتت رد فعل للاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون ـ الشرقيون والغربيون ـ في البلدان الإسلامية إنما هو ادعاء باطل لا يتفق وروح الإسلام

---

(١) Archives de l'orient latin 1 - ps 2 — 22.

(٢) ص ١٨.

وطبيعة الدعوة إليه وما أحاط به القرآن أهل الكتاب من رعاية وعناية وما أمر الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من دعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾[1] ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً في كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة تشهد عليها الرسالة التي بعث بها ثيودسيوس بطريق بيت المقدس سنة ٨٦٩م إلى زميله أجناتيوس بطريق القسطنطينية والتي امتدح بها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق حتى إنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أي تدخل في شؤونهم الخاصة وقد جاء في رسالة بطريق بيت المقدس بالحرف الواحد: «إن المسلمين قوم عادلون ونحن لا نلقى منهم أي أذى أو تعنت»[2].

صحيح أن بعض المسيحيين تعرّض في بعض البلدان الإسلامية لنوع من الضغط والاضطهاد ولكن هذه حالات فردية شذت عن القاعدة العامة التي حرص الإسلام دائماً عليها وهي التسامح المطلق مع أهل الكتاب إلى جانب هذه الحالات الفردية ذكر التاريخ أن ما قام به خلفاء الأمبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية. وما قام به شارلمان في القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والبافاريين والآفار بحد السيف

(١) ﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب. فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم. الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ «سورة الشورى ١٤، ١٥».

(٢) سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ٢٤.

حتى إنه قتل من السكسون وحدهم في مذبحة فردان.الشهيرة أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة. وما ارتكبه الفرسان التيستون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولتهم نشر المسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطىء البحر البلطي[1] هذا فضلاً عما أتاه المبشرون الجزويت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند[2] على كل فالباعث الديني كان له أثر في تحريك الحروب الصليبية ولكن ليس من الصواب القول بأن هناك اضطهاد فريد من نوعه حل بالمسيحيين في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن الحادي عشر كان سبباً لاستثارة الغرب الأوروبي. وإن كان بعض دعاة الحملة الصليبية الأولى وعلى رأسهم البابا أوربان الثاني قد استغلوا فكرة الاضطهاد هذه للاستهلاك المحلي في الدعاية لمشروعهم في غرب أوروبا. علماً بأن عامة الناس في مختلف بلدان الغرب الأوروبي لم يكن يهمهم كثيراً أمر إخوانهم المسيحيين الشرقيين في البلدان الإسلامية كما أنه لا صحة إطلاقاً للفكرة التي ظلت سائدة والتي صورت الصليبيين في صورة المسيحيين المخلصين الذين جرفهم شعور التقوى والورع إلى هجرة الوطن والأهل والأحباب في سبيل تحقيق رسالة دينية سامية وإنهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من أجل غرض واحد هو خدمة الصليب والاستشهاد في سبيله[3].

---

(١) سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى ص ٣٩ ـ ١٩٤.
(٢) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام ص ٣١٠.
(٣) سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ٢١ ـ ٢٢.

ب ـ الباعث الاقتصادي:

إن جميع الوثائق المعاصرة تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوروبا ـ وبخاصةً فرنسا ـ في أواخر القرن الحادي عشر. فالمؤرخ المعاصر جيوبرت نوجنت يؤكد أن فرنسا بالذات كانت تعاني من مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى فعدم وجود الغلال وارتفاع أثمانها ارتفاعاً فاحشاً ترتب عليه حدوث أزمة في الخبز وعلى هذا فإن نسبة الصليبيين الفرنسيين المشتركين في الحملة الصليبية الأولى أكبر من الوافدين من أي بلد أوروبي آخر.

ومهما يقال إن هذه الأزمة كانت مفتعلة ـ أفتعلها التجار المستغلون وجلهم من اليهود ـ فالمهم أنه كانت هناك أزمة اقتصادية فعلاً في الغرب الأوروبي عند الدعوة للحملة الصليبية الأولى وإن هذه الحملة ألجأت الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش[1].

وزاد من سوء الأحوال الاقتصادية في الغرب الأوروبي في ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين وهي الحروب التي لم تنجح الكنيسة أو الملوك في وقفها مما أضرّ بالتجارة وطرقها والزراعة وحقولها أبلغ الضرر.

وليس أدل على سيطرة النزعة الاستعمارية الاستغلالية على عقول كثير ممن أسهموا في الحركة الصليبية مما نشأ من منازعات ومخاصمات بين الصليبيين بعضهم وبعض في بلاد الشام وخاصةً بين «الثلاثة الكبار» البندقية وجنوا وبيزا في أشد الأوقات حرجاً بالنسبة للصليبيين أي في النصف الأخير من القرن الثالث عشر

(١) سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ٢٤.

عندما بدأت مقاومة المسلمين لهم تشتد وبقاياهم تتساقط. وعلى رغم صيحات العقلاء من البابوات ورجال الدين وملوك قبرص ليوحد الصليبيين صفوفهم أمام الخطر الذي يوشك أن يعصف بهم فقد كانت المنافسات التجارية والخصومات المادية بين الصليبيين بعضهم وبعض أعمق جذوراً وأقوى أثراً من شعور الولاء للدين والكنيسة.

جـ ـ الباعث الاجتماعي:

تألف المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى من ثلاث طبقات: طبقة رجال الدين من الكنسيين والديريين ـ وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان وطبقة الفلاحين من الأقنان ورقيق الأرض. وكانت الطبقتان الأولتان أقلية تمثل في مجموعها الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والارستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية في حين ظلت طبقة الفلاحين أو القنانة تمثل الغالبية المغلوبة على أمرها والتي كان على أفرادها أن يعملوا ويشقوا ليسدوا حاجة الطبقتين الأوليتين[١] وهؤلاء الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات فكان عليهم أن يقدموا خدمات معينة للسيد الإقطاعي مثل فلاحة أرضه الخاصة فضلاً عن تسخيرهم في أعمال شاقة مثل إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر. كذلك كان عليهم دفع ضرائب معينة مثل ضريبة الرأس التي يتعين على كل قن دفعها سنوياً رمزاً لعبوديته عدا الضرائب على ماشيته وما تنتجه من خضروات[٢].

---

(١) سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى ج ٢ ص ٦٣.

(٢) Heaton: Economic Hist. of Europe p. 95.

أما السيد الإقطاعي صاحب الضيعة هو الذي يمتلك طاحونة وفرناً ومعصرة بل أحياناً البئر الوحيد في الضيعة. وفي هذه الحالة يصبح كل قن ملزماً بإحضار غلته إلى طاحونة السيد وحمل خبزه إلى فرن السيد.. وكرومه وزيتونه إلى معصرة السيد لعصرها. كل ذلك مقابل أجور معينة يقدمها الأقنان والفلاحون لسيدهم الإقطاعي.

وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس في غرب أوروبا يحيون حياة شاقة مليئة بالذل والهوان وكل ذلك في الوقت الذي علت الدعوة للحرب الصليبية. فإذا كانت ألوف من العامة من أهل غرب أوروبا قد أسهمت في الحركة الصليبية فإنما دفعتهم عوامل اجتماعية واقتصادية هامة فوجدوا في تلك الحرب منفذاً إلى حياة أفضل[1].

وعلى هذا نستطيع أن نؤكد أنه لو تيسر لتلك الجموع في بلادهم الأصلية حياة حرة وعيشاً مناسباً لما غامروا بترك أوطانهم جرياً وراء وعود خيالية أسرفت الكنيسة في تقديمها.

د ـ الباعث السياسي:

إذا كانت الفاقة والحرمان وتسلط الإقطاع هي التي دفعت الغالبية العظمى من الصليبيين إلى الترحيب بالدعوة الجديدة والمشاركة في الحركة الصليبية فالسؤال المطروح؟ ما الذي دفع عدداً كبيراً من أمراء وفرسان وملوك أوروبا إلى المشاركة في هذه الحركة؟ إن دراسة تاريخ الغرب الأوروبي في تلك الفترة من العصور

(١) سعيدعاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٣٠.

الوسطى تدلنا على مدى قوة البابوية وعظم سلطانها، وإن ملكاً من ملوك الغرب كان لا يستطيع أن يعصي لها أمراً أو يرد لها طلباً وإلا تعرض للحرمان وللطرد من الكنيسة ورحمتها فلا يستطيع الاحتفاظ بعرشه أو بولاء شعبه، وأكبر مثال على ذلك ما حدث للأمبراطور فردريك الثاني الذي أخذ البابوات يلحون عليه في الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين ولما لم يجد الأمبراطور دافعاً يدفعه للقيام بتلك الحملة ظل يماطل حتى صدر قرار الحرمان من قبل البابوية بحقه. عندئذٍ خرج الأمبراطور على رأس فئة قليلة من رجاله قاصداً الشام وعندما وصل بادر إلى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبي ليشرح له موقفه وإنه «ما له غرض في القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج»[1].

إذن إن ضغط البابوية وإلحاحها وتهديدها وتحريض الفلاحين والنبلاء الذين هم بدون أرض، وكذلك تأمين الغفران لأصحاب السوابق. كان الدافع في مشاركة ملوك الغرب في الحروب الصليبية. أما الدكتور سعيد عاشور[2] فإنه يستثني من ذلك لويس التاسع ملك فرنسا الذي اشتهر بورعه وتقواه وتدينه حتى لقبه معاصروه بالقديس، والذي أراد أن يعبر عن حماسته الدينية تعبيراً عملياً بالمشاركة في الحركة الصليبية.

أما الأمراء الذين أسهموا في الحركة الصليبية فمعظمهم كان يجري وراء أطماع سياسية.

(١) المقريزي، المسلوك ج ١ ص ٢٣.
(٢) سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ٣٠.

فالنظام الإقطاعي ارتبط دائماً بالأرض وبقدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع. وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة التي يمكن أن تواجه الأمير أو الفارس هي عدم وجود إقطاع أو أراض له. مما يجعله عديم الفائدة. وقد أدت طبيعة النظام الإقطاعي في الغرب الأوروبي إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض، لأنه من القواعد الأساسية في هذا النظام أن الإبن الأكبر وحده هو الذي يرث. فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه[1] وبذلك يبقى بقية الأبناء بدون أرض وهو وضع ممقوت في المجتمع الإقطاعي.

وعندما ظهرت الحركة الصليبية فتحت باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان المحرومين من الأرض في غرب أوروبا فلبوا نداء البابوية لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات لهم في الشرق تعوضهم عما فاتهم في الغرب، حتى وصل بهم الأمر إلى الخلافات الحادة فيما بينهم أثناء الحملة الصليبية الأولى وهم في طريقهم إلى الشام يقسمون الغنيمة حتى قبل أن يستولوا عليها. وكيف استحكم النزاع فيما بينهم أمام انطاكية من أجل رغبة كل منهم في الفوز بها[2] حتى إن بعضهم قنع بما كسبه في الطريق وتخلى عن مشاركة الصليبيين في الزحف على بيت المقدس وهو الهدف الأساسي للحملة. وعبثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض تلك المشاكل

(١) سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٤٩.
(٢) سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ٣٢.

وتذكر الأمراء الصليبين بالشام أن المسلمين يحيطون بهم. ولكن تلك الصيحات ذهبت أدراج الرياح لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسياً. لم يكن يهمهم إرضاء البابا أو سخطه.

يضاف إلى ذلك عامل آخر شجع كثيراً من فرسان الغرب الأوروبي على المشاركة في الحملة الصليبية وهو أن النظام الإقطاعي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالفروسية والحرب وإظهار الشجاعة، وأن حياة السلم كانت تعني البطالة بالنسبة لمحاربين محترفين لا عمل لهم إلا القتال والحرب... وعندما ظهرت الدعوة الصليبية فتحت أمامهم باباً واسعاً لإظهار شجاعتهم والتعبير عن مواهبهم الحربية(١).

ثالثاً: وصول القوات الصليبية إلى جبل عامل

بعد تحديد الحركة الصليبية والبواعث التي كانت سبباً في زحف الآلاف من مسيحيي غرب أوروبا إلى الشرق والذين اتخذوا من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً، وقبل أن أدخل في تفاصيل دخولهم إلى منطقة جبل عامل واحتلاله، لا بد من إلقاء نظرة سريعة عن مرورهم بالساحل اللبناني حتى وصولهم إلى صيدا واحتلالها ثم إلى صور فبقية قرى ومدن جبل عامل.

عند وصول الصليبيين إلى إنطاكية، عمد الفاطميون في مصر إلى الاتصال بهم لمفاوضتهم على محاربة السلاجقة واقتسام البلاد فتكون بلاد الشام للصليبيين وتكون فلسطين للفاطميين. حصل ذلك لعدم

(١) سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٣٣.

تقدير الحكام السلاجقة في بلاد الشام ولا الحكام الفاطميون في مصر وفلسطين حقيقة الأهداف الصليبية وأخطارها[1] وقد انعكس ذلك على الوضع في لبنان فدخلوا من الشمال الشرقي لعكار. فاحتلوا طرطوس وحاصروا عرقه ثم سيطروا على جبله بعد حصار قصير وبذلك أصبح الساحل الشمالي بكامله بأيدي الصليبيين من إسكندرونة إلى طرطوس وأخيراً انتصروا على قوات إبن عمار خارج طرابلس ولكنهم فشلوا في احتلال المدينة واستقر رأيهم على التوجه نحو القدس فتوجهوا نحو بيروت متبعين طريق الساحل بإرشاد إدلاء موارنة من منطقة طرابلس. وقد وصلوا إلى بيروت في ١٩ أيار سنة ١٠٩٩[2] وقد عرض عليهم أهالي بيروت إمدادهم بالمال والتموين مقابل تعهد الصليبيين بعدم الاعتداء على البساتين ومزارع الكروم والغلال المملوكة للعرب، كما تعهدوا بالدخول في طاعة الصليبيين والإعتراف بالتبعية لهم إذا نجحوا في احتلال بيت المقدس.

وعندما وصلوا إلى صيدا ٢٠ مايو سنة ١٠٩٩ م[3] هاجمت حامية صيدا بعض الجند الصليبيين مما جعل هؤلاء يتلفون المزارع المجاورة ويعتدون على الضياع القريبة.

أ ـ سقوط صيدا:

كانت مدينة صيدا قد تعرضت للصليبيين أثناء زحفهم على

---

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص ١١٠ ـ ١١١.
(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(٣) سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٩٠.

فلسطين كما ورد انفا وظلت صيدا تنعم بعدها بالهدوء والاستقرار بحماية الأسطول الفاطمي من البحر وقوات طغتكين من البر حتى سنة ١١٠٦ م حين قرر الملك بودوان احتلال المدينة. وقد استغل بودوان وجود مجموعة كبيرة من الحجاج الصليبيين من الإنكليز والفلمنكيين والدانماركيين فتحرك بهم نحو صيدا. إلا أن حاكم صيدا أسرع يسترضي بودوان بمبلغ كبير من المال فرضي بودوان وعدل عن مهاجمة المدينة[١]، وظلت صيدا بعد ذلك بعيدة عن هجمات الصليبيين حتى سنة ١١٠٨ م حين وصل في شهر آب من تلك السنة أسطول كبير من المدن الإيطالية بيزا وجنوا والبندقية فدعاه بودوان لمهاجمة صيدا. ولكن الفاطميين أسرعوا فأرسلوا أسطولهم الذي تمكن من إيقاع الهزيمة بالسفن الصليبية فارتفع بذلك الحصار البحري عن المدينة وفي الوقت نفسه وصلت قوة كبيرة من دمشق أرسلها الأتابك طغتكين تلبية لطلب حاكم صيدا وقيل إن هذه القوة كانت من ١٥ ألف جندي فانسحب الملك بودوان أمام هذا التطور السريع إلى فلسطين وبذلك نجت صيدا مرة ثانية[٢]، غير أن أول مرة عرفت هذه البلاد الاحتلال الفرنجي الصليبي كانت سنة ٥٠٤ هـ/١١١١م[٣] إذ فاجأها بلدوين[٤] ملك القدس

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ١٢٠ - ١٢١.

(٢) نفس المرجع ص ١٢١.

(٣) جبل عامل حتى الاحتلال الصليبي، مجلة العرفان ١٩٦٨، حسن الأمين ص ٣٤٦.

(٤) بلدوين هو نفسه بودوان ملك القدس.

فحاصرها براً وبحراً وكان الأسطول الفاطمي يدافع عن صور المحاصرة هي الأخرى فلم يستطع إنجاد صيدا، وكانت طرابلس وبيروت قد سقطتا من قبل بعد حصار طويل فأعمل الفرنجة في أهلها السيف والنهب والسلب. فخشيت صيدا بعد أن رأت عجزها عن الدفاع أن يحل بها ما حل بالمدينتين من قبلها فأرسلت وفداً يفاوض على التسليم بشروط فوافق الفرنج على طلب الأمان ويقول المؤرخون: «فأمنوهم على أنفسهم وأموالهم والعسكر الذي عندهم. ومن أراد المقام أمّنوه أو المسير لم يمنعوه فخرج جماعة إلى دمشق ورحل عنها بلدوين عائداً إلى القدس ثم عاد إليها فقرر عليها عشرين ألف دينار فأفقرها[1]». وكان الفرنج كما ورد آنفاً قد حاولوا احتلال صيدا قبل ذلك بسنتين أي في سنة ٥٠٢ هـ ما يعادل ١١٠٨ م إذ قصد بلدوين مدينة صور أولاً وحاصرها وبنى حصناً على تل المعشوق فصانعه واليها على مبلغ من المال فرحل عنها وقصد مدينة صيدا فحاصرها براً وبحراً ووصل في أثناء ذلك الأسطول الفاطمي لحمايتها فاشتبك بأسطول الفرنج واستطاع التغلب عليه مما أدى إلى رحيل الفرنج عن صيدا.

وبسقوط صيدا في ٤ كانون أول سنة ١١١٠ م أي ما يعادل سنة ٥٠٤ هـ تكون المنطقة الجنوبية من لبنان قد أصبحت ما عدا صور بمعظمها في أيدي الصليبيين وقد حصل البنادقة بفضل مساعدتهم لبودوان في احتلال صيدا على امتيازات تجارية كبيرة في عكا[2]. وفي أثناء إقامتهم في بساتين صيدا تعرضوا لخطر لسع الحيات السامة

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ أخبار سنة ٥٠٤ هـ.
(٢) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص ١٢٢.

ولكن أهل صيدا علموهم - وعن طيبة خاطر - كيف يتقون خطر السم.

ب - صمود صور:

والفرنجة الذين احتلوا صيدا عجزوا عن احتلال صور وكانوا يحاصرونها ثم يعودون عنها وكان حصار سنة ٥٠٥ هـ ١١١١ م من أشد ما عانت المدينة.

وكان الفاطميون قد اتخذوا مدينة صور مركزاً لأسطولهم البحري يغيرون به على المراكز الصليبية المختلفة. وعهد الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله مدينة صور للأمير عز الملك الأعز. وقدساير أهل صور الصليبيين حين مرورهم بساحلها ولكن الصليبيين عمدوا إلى بناء قلعة تبنين سنة ١١٠٥ م على يد «هيو» حاكم الجليل ثم عمد بودوان سنة ١١٠٨ م إلى بناء حصن آخر خارج صور عند تل المعشوق كما مرّ آنفاً لتشديد الحصار على المدينة. ولكن حاكم صور عمد بدوره إلى مهاجمة هذين المركزين. ثم وقعت الهدنة بين طغتكين وبودوان فدفعت صور مبلغاً من المال لقاء الهدنة «٧ آلاف دينار»[١] وشعرت صور أن الحماية الفاطمية ليست كافية بعد سقوط صيدا وبيروت وطرابلس فعمد واليها عز الملك الأعز الأفضلي إلى الاستنجاد بصاحب دمشق طغتكين طالباً منه المساعدة لأنّ أهالي صور لاحظوا أن دور السلاجقة في دمشق في محاربة الصليبيين هو دور فعّال أكثر من دور الفاطميين لا سيما وأن منطقة جبل عامل

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص ١٢٤ - ١٢٥.

بعد سنة ١١١٠ م بقيت المنطقة الوحيدة التي تربط دمشق بميناء بحري هو صور لذلك كان طغتكين يهتم كثيراً بإبقاء المنطقة خارج الحكم الصليبي. يقول ابن القلانسي[1]: «وأتت أهل صور رجالة كثيرة من صور وجبل عاملة رغبوا في ذلك مع رجالة من دمشق وصلوا إليهم وحصلوا عندهم وشرع أتابك في إنفاذ عدة أخرى».

وهذا النص يدلنا على أن جبل عامل كان في ذلك الوقت يعرف باسم «جبل عاملة» ثم هو يشير إلى مساهمة العامليين مساهمة فعّالة في الدفاع عن صور وحمايتها.

ونحن نرى أن ابن القلانسي قد أكد على أن الحملة العاملية كانت كثيرة العدد بقوله: «رجالة كثيرة من صور وجبل عاملة» وجمعه بين صور وجبل عاملة يدل على أن الجبل كله قد ساهم في هذه المعركة وإن ما من قرية إلا وأوفدت شبابها للكفاح. إذ إن المقصود بكلمة صور هنا لا المدينة نفسها لأن سكانها فيها ولا يأتونها من الخارج بل المقصود القرى المحيطة بصور. وللتأكيد على أن النجدات جاءت من كل القرى العاملية ميّز المؤرخ بين قرى صور وقرى الجبل.

وبعد خطوب وأهوال وحصار دام أربعة أشهر ونصف اضطر الفرنج للرحيل عن صور بعد أن لم يظفروا منها بطائل. وبعد أن فقد المدافعون عن المدينة أربعمائة قتيل ويقول ابن القلانسي عن قتلى الإفرنج: «ومن الإفرنج في الحرب أيضاً ما حكى الحاكي العارف تقدير ألفي نفس».

---

(١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق ص ١٦٧ - ١٧١

أما ابن الأثير فقد وصف هذا الحصار في أخبار سنة ٥٠٥ هـ: «أقام بودوان ثلاثة أبراج خشبية متحركة على المدينة، وفي كل برج ألف رجل، وإن رجلاً شيخاً من صور استعمل سائلاً ووقوداً أحرق به الأبراج وأرسل أهل البلد إلى طغتكين صاحب دمشق يستنجدونه ويطلبونه ليسلموا البلد إليه، فدخلوا البلد فامتنع من فيه بهم. . . ثم إن عز الملك صاحب صور أرسل الأموال إلى طغتكين ليكثر من الرجال ويقصدهم ليملك البلد فأرسل طغتكين طائراً فيه رقعة ليعلمه وصوله المال، وسار إلى صيدا وأغار على ظاهرها فقتل جماعة من البحرية وأحرق نحو عشرين مركباً على الساحل. وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر والفرنج يلازمون قتالهم. وقاتل أهل صور من يئس من الحياة فدام القتال إلى أوان إدراك الغلات. فخاف الفرنج أن يستولي طغتكين على غلاتهم فساروا عن البلد. . . إلى عكا وعاد عسكر طغتكين إليه. . .»(١).

وهكذا نجت صور بفضل ثباتها ونجدة السلاجقة من دمشق بعد حصار شديد دام أربعة أشهر ونصف الشهر.

وتلا هذا الانتصار لصور ولطغتكين إن أهل المدينة طالبوا تسليمها لطغتكين فقبل وعين عليها حاكماً من قبله هو الأمير مسعود أمير بانياس فأصبحت صور بذلك تابعة للسلاجقة ولكنها أبقت الخطبة والدعوة للخليفة الفاطمي لتستعين بالأسطول المصري.

ثم بدأ طغتكين يتصل بالأمراء المسلمين من شمالي سوريا

---

(١) ابن الأثير، الكامل ج ١٠ ص ٤٨٨ - ٤٩٠.

والعراق للقيام بهجوم كبير على الصليبيين. فشعر بودوان بخطر التجمع الإسلامي لذلك أسرع يفاوض طغتكين على أن يتخلى عن جبل عامل وقلعة تبنين وعدم التعرض لإمارة دمشق. ولكن طغتكين رفض واجتمعت قوات الأمراء المسلمين فاندفعت عبر البقاع إلى وادي التيم وبانياس وبعضها هاجم قلعة تبنين. وتوغلت هذه القوة في فلسطين حيث وقعت معركة الأقحوانة في «حزيران ١١١٣ م»[1].

وبعد هذا الظفر وبالرغم من توفر جميع أسباب النصر للمسلمين فقد فشلوا في القضاء على الصليبيين بسبب اختلاف الأمراء المسلمين فيما بينهم. فقد عمد بودوان في السنة التالية «٥٠٧ هـ ١١١٤ م» إلى الاتصال بالأمير مسعود الذي أصبح أميراً لصور عارضاً عليه الهدنة فقبلها واستقرت الحال بين الفريقين على المهادنة لتعمر الأعمال بعد خرابها فأمنت المسالك وصلحت الأحوال «خطط الشام ج ١ ص ٢٩٩».

وعمد بودوان بعد ذلك معتمداً على التفسخ في صفوف المسلمين إلى بناء قلعة جديدة لتطويق صور وذلك في جنوبيها وهي قلعة الإسكندرونة «شمالي الناقورة اليوم» وذلك سنة ١١١٦ م واستمرت صور صامدة حتى وصل إليها الأسطول الفاطمي سنة ٥١٦ هـ سنة ١١٢٢ م فألقي القبض على الأمير مسعود وأعيدت المدينة إلى الحكم الفاطمي المباشر. ويتحدث ابن القلانسي عن وصول الأسطول

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص ١٢٦.

الفاطمي إلى صور قائلا: «فرخصت الأسعار به وحسنت حالها واستقام أمرها وزال طمع الإفرنج بها».

قال ابن الأثير في أخبار سنة ٥١٨ هـ: «ولما سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قوي طمعهم فيها وحدثوا نفوسهم بملكها وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها وحصارها فسمع الوالي بها للمصريين الخبر... فأرسل إلى الآمر بذلك فرأى أن يرد ولاية صور إلى طغتكين ـ صاحب دمشق ـ فأرسل إليه بذلك فملك صور ورتب بها من الجند وغيرهم ما ظن فيه كفاية.

وصور بعد طرابلس كانت أحسن المدن اللبنانية ازدهاراً وعمراناً عندما قدمها الصليبيون. فإنه فضلاً عن صناعاتها القديمة المشهورة كانت صناعة السكر فيها مزدهرة. وكان الإقبال على مادة السكر قد ازداد كثيراً أولاً كطعام وثانياً لخاصيته في تحضير الأدوية.

وصور، الجزيرة البحرية كانت تنعم بإسالة ماء وفير ذلك بواسطة القناة التي كان الرومان قد أنشأوها لمد المدينة بالماء من نبع رأس العين ولا تزال صور إلى يومنا هذا تستفيد من هذه القناة. وبما أن صور كانت ميناءً هاماً منه تخرج مراكب المسلمين لمحاربة القراصنة البيزنطيين فإنها كانت محصنة تحصيناً قوياً. فقد كان يحيط بها من جهة البر سور منيع يتألف من ثلاثة أسوار ومن جهة البحر سور مزدوج ولكن تجار صور لم يكونوا آنذاك يحتكرون التجارة الدولية كما كانوا يحتكرونها في السابق بل كان لهم منافسون أشداء. ولم تقتصر المنافسة على تجار جنوا والبندقية وبيزا بل كان على تجار صور أن ينافسوا تجار مرسيليا ويصادف أن مدينة صور قبل أن

قدمها الصليبيون بسنة ثارت في وجه حكامها الفاطميين في مصر وهكذا تعرضت المدينة لمجزرة رهيبة. أما الصليبيون فإنهم نصبوا خيامهم بالقرب من «ينبوع الجنات المشهور، وهو نبع ماء حي وأعجوبة من عجائب الدنيا»[1] ومياه هذا النبع لا تنبع من الجبل إنما (تتدفق من جوف الأرض) ويظن أن هذا النبع الذي تغنى به سليمان الحكيم حين قال: «ينبوع جنات بئر مياه حية وسيول من لبنان»[2].

جـ - سقوط مدينة صور:

كانت مدينة صور ميناءً تميز بقدر كبير من المناعة الطبيعية والاصطناعية فكان بوسعها أن تعتمد على المساعدة من كل من الفاطميين في مصر وحكام دمشق. وأظهرت محاولات الاعتداء الأولى إنها لم تكن على استعداد للسقوط بسهولة في أيدي اللاتين. فبناءً على قول وليم الصوري نظَم هيو السان أومري أمير الجليل الثاني هجمات كثيرة عليها، ولكن المسافة بين هذه المدينة وقاعدته في طبريا كانت كبيرة إلى حدٍ أنه كلما هزم رجاله في معركة بقرب صور لم يكن لديهم ملجأ يلتجئون إليه من مطارديهم. ولذلك قبل وفاته ببعض الوقت سنة ١١٠٧ م أنشأ قلعة عرفت لدى الإفرنج باسم تورون وقامت على تل تبنين على بعد حوالي ١٣ ميلاً إلى الشرق من صور.

(١) William of Tyre, vol, 1 p. 331.

(٢) فيليب حتي، لبنان في التاريخ ص ٣٤٨.

وهكذا ظلت صـــور والإفرنج عليها بين كر وفر حتى سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤ م فشددوا الحصار عليها وكان الفاطميون يمدونها من مصر في البحر وساعدها على الدفاع وضعها الطبيعي فهي شبه جزيرة، وحاول الفاطميون إمدادها براً فلم يستطيعوا ثم تنبه الإفرنج إلى المدد الطبيعي البحري فأوكلوا إلى أسطول البندقية قطع الطريق البحري كما كان البنادقة أنفسهم قد قطعوا طريق الإمداد البري فاضطرت المدينة إلى الاستسلام بشروط. منها أن يخرج الجنود والأهلون حاملين ما يقدرون على حمله فدخلها الإفرنـج وتفرق أهل صور في البلاد ولم يبق بها إلا الضعيف على الحركة. وتركوا ما عجزوا عنه. ولم يتعرض الفرنج لأحد منهم. وملكوا البلد في الثالث والعشرين من جمادى الأول من السنة «٥١٨ هـ» وكان فتحه وهناً عظيماً على المسلمين لأنها من أحصن البلاد كما يقول بعض المؤرخين.

أما أخبار المؤرخين الصليبيين خاصةً وليم الصوري فتقول: إن البنادقة وجهوا أسطولاً عظيماً مؤلفاً من ٣٠٠ سفينة و١٥ ألف جندي واتفق البنادقة مع الوصي على عرش المملكة الصليبية «كان الوصي هو بارون صيدا. وبعد وفاته صار الوصي بارون طبريا وليم بور وكان الملك بودوان الثاني أسيراً بيد سلاجقة حلب» على أن تكون لهم امتيازات اقتصادية وتجارية فتكون لهم أحياء خـاصة وتكون نشاطاتهم ومرافقهم معفاة من الضرائب وتكون موازينهم ومقـاييسهم خاصـة بهم ويكونـون أحراراً في شؤون الاستيـراد والتصدير ويكون لهم ثلث المدينة. وبعد الاتفاق أطبق البنادقة

على صور كما حاصرها الصليبيون من البر فاضطرت إلى التسليم بعد حصار دام من أواسط شباط سنة ١١٢٤ م إلى أوائل تموز ٧ تموز ١١٣٤ م. وبذلك تكون قد صمدت أمام الصليبيين ربع قرن من الزمن[١]. وبسقوط صور كملت السيطرة الصليبية على الساحل اللبناني وبذلك نستطيع القول: إن جبل عامل سقط كله تقريباً بأيدي الفرنج وانتهى بذلك عهد ارتباط هذه البلاد، بالبلاد العربية بحكم واحد. وأصبحت كل منطقة تقابل مصيرها وحدها بما تملك من وسائل خاصة ويبدو أن البلاد لم تقوَ بعدما عانته من بلاء على الثورة على الإفرنج كما أنها كانت لا تنتظر العون من الخارج لأن كل بلد صار مشغولاً بحماية نفسه والتفكير بمفرده.

وينقل غروسيه[٢] عن غليوم الصوري[٣] كيف أن الصخور الكبيرة كانت تنطلق من وراء أسوار المدينة المحاصرة لتضرب الأبراج الخشبية، ويذكر أنه في أحد الأيام قامت الحامية التركية والسكان المسلمون بالخروج فجأة وباغتوا حراس آلات الحصار فقتلوا ثلاثين شخصاً وأضرموا النار في المنجنيق الرئيسي وفي البرج الخشبي الكبير. كما أثبت المدافعون عن مدينة صور جرأتهم عندما اغتنموا فرصة مرور ليلة مظلمة ووصلوا سباحة إلى سفينة الحراسة البندقية الراسية أمام المرفأ وقطعوا المرساة ونجحوا بسحبها إلى الرصيف حيث استولى عليها المسلمون فقتلوا قسماً من ركابها

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص ١٢٨.
(٢) René. Crousset. Histoires des croisades, Tome I. page. 608.
(٣) غليوم الصوري، عرف باسم وليم الصوري وهو مؤرخ الحروب الصليبية.

واستطاع بعضهم النجاة بالوصول سباحة إلى حيث أسطول البنادقة ولقد أصبحت صور تابعة لإمارة تبنين التي كانت لفترة تحت حكم عائلة انفروا الأول والثاني والثالث والرابع.

رابعاً: ردة الفعل الإسلامية

في الوقت الذي كان الصليبيون يعززون مراكزهم بإقامة القلاع والحصون «وسأتكلم عن ذلك في فصل لاحق» كان العالم الإسلامي يستفيق. ولا شك أن الصليبيين اطمأنوا إلى مناعة قلاعهم وحصونهم كما اطمأن الفرنسيون في الأزمنة الحديثة إلى مناعة خط ماجينو. ولكن هذه العقلية التي تستكين بفعل الاعتماد على الحصون لا تعتم طويلاً حتى تدرك مبلغ الخطر. وأول إشارة لهذا الخطر انبعثت من الموصل. بعثها أتابك تركي اسمه عماد الدين زنكي ولقد كان زنكي مولى لأحد السلاجقة ولكنه وفق إلى الاستيلاء على الموصل ومن الموصل تقدم لغزو سورية فقد استولى في سنة ١١٢٨ م على مدينة حلب وفي السنوات التالية احتل حماه وحمص وبعلبك.

بدأ زنكي بعملية توحيد شمالي سورية وشمالي العراق تحت قيادة واحدة وذلك قبل البدء بمحاربة الصليبيين. أما إمارة أيدسا فقد كانت تقع بين البلدين. وفي عام ١١٤٤ م هاجم هذه الإمارة اللاتينية وبعد حصار دام أربعة أسابيع سقطت أيدسا فكانت أول إمارة لاتينية أسسها الفرنج وأول مملكة لاتينية تقع في أيدي المسلمين. فكان سقوطها بداية النهاية بالرغم من أن النهاية كانت لا تزال

بعيدة يعترضها كثير من التضحيات. غير أن الأمر المهم هو أن الهجوم المنظم العنيف كان قد بدأ وكان بطل هذا الهجوم هو زنكي: فهو أول من سدّد الضربات المؤلمة تلك الضربات التي استمر بها نور الدين وزاد في حدتها وعنفها صلاح الدين الأيوبي ثم بيبرس وخلفاؤه من المماليك إلى أن رحل آخر جندي صليبي عن هذه البلاد(١).

في عام ١١٤٦ م تسلم قيادة المسلمين ابن زنكي وخليفته نور الدين محمود. وأول انتصار عسكري كان استيلاؤه على دمشق وبسقوطها تغيرت أوضاع المنطقة سياسياً وعسكرياً وطائفياً. فقد ذكر «إن الأسطول المصري هاجم بسبعين سفينة حربية مشحونة بالرجال مدينة يافا واستولى على عدة مراكب للفرنج والروم ثم قصد ثغر عكا وصيدا وبيروت وطرابلس وفعل فيها مثل ذلك...»(٢).

أما البطل الثالث في الحروب الصليبية وأعظمهم شوكة وأشهرهم اسماً فقد كان صلاح الدين الذي بدأ حياته في خدمة نور الدين ثم خلفه في الحكم. واسمه الكامل ولقبه: الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. ولد في تكريت وهي بلدة تقع على دجلة ١١٣٨ م والداه كرديين أرسله نور الدين إلى مصر ليحقق ثلاثة أهداف رئيسية:

١ ـ قَلْب الخلافة الفاطمية.

---

(١) فيليب حتي، تاريخ لبنان، ص ٣٦٢.
(٢) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص ١٥٢.

٢ ـ توحيد مصر وسورية تحت صولجان واحد.

٣ ـ متابعة الحرب ضد الصليبيين حتى النهاية.

وبالفعل فقد حقق الهدف الأول بسهولة إذ أصبح وزيراً في البلاط الفاطمي وترقب الفرص وحقق غايته. إذ بينما كان الخليفة العاضد ـ كان عمره ٢٠ سنة ـ يعاني سكرة الموت سنة ١١٧١ م أمر صلاح الدين أن يذكر الخليفة العباسي في بغداد المستضيء في صلاة الجمعة عوضاً من ذكر الخليفة الفاطمي وكانت هذه الخطوة سهلة التحقيق إذ لم يرافقها أي شيء من المقاومة أو الاحتجاج ولم يقف عند هذا الحد بل قضى على استمرار الانقسام الخطير الذي كان يمزق العالم الإسلامي.

وقد ذكر ابن القلانسي في أخبار سنة ٥٥٢ هـ «١١٥٧ م» «ص ٣٣٩» أن جيش نور الدين أوقع بالصليبيين هزيمة كبرى أمام بانياس ومحقت السيوف عامة رجالتهم».

والجدير بالذكر أن معركة بانياس اشترك فيها نور الدين نفسه وبودوان الثالث ملك الصليبيين. ومرض نور الدين بعد ذلك مرضاً خطيراً فخلفه في الحكم أحد أبنائه إسماعيل وهو صبي في الحادية عشرة من عمره. وهكذا لم يجد صلاح الدين صعوبة في السيطرة على الملك من هذا الصبي[1]. وهكذا قامت السلطنة الأيوبية على

(١) فيليب حتي، تاريخ لبنان ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

أنقاض الخلافة الفاطمية في مصر والأتابكة في سورية وكان على صلاح الدين بعد أن استتب له الأمر أن يحقق الحلم الذي كان يراود نورالدين، حصر الصليبيين والإحاطة بهم من كل جانب تمهيداً للقضاء عليهم. وهكذا بعد أن حقق الهدفين الأولين: قلب الخلافة الفاطمية وتوحيد مصر وسورية، شرع في الاستعداد لتحقيق الهدف الثالث.

ففي سنة ١١٧٩ م عاد صلاح الدين من جديد ليترأس جيشاً، ركّز قوته الرئيسية في بانياس وأرسل مفارز للإغارة في اتجاه صيدا والسهول الساحلية، وإخلاصاً لأفكار الملوك اللاتين العسكرية قاد بلدوين قوة إلى المناطق المهددة. ومن طبريا زحف عن طريق صفد وتورون إلى نقطة تقع في الطرف الشرقي من سلسلة الجبال الساحلية يستطيع أن يشرف منها على مرجعيون كما يستطيع أن يرى عن بعد خيام جيش صلاح الدين الرئيسي. واستطاع الإفرنج النزول إلى السهل دون تأخير، وفي الزحف السريع أثناء نزول المنحدر الشديد الانحدار لم يتمكن سوى الجنود المشاة الأكثر نشاطاً من مجاراة الفرسان في سرعتهم، وعندما بلغ الفرسان السهل بدأ القتال ثم جرى توجيه الجيش الصليبي ضد المفارز الإسلامية العائدة من الغارات التي كانت قد شنتها في أماكن أبعد إلى الغرب، حيث أمكن هزيمتها. غير أن المسلمين بقيادة صلاح الدين تجمعوا بين مرجعيون وممر الليطاني وتقدموا بسرعة استطاعوا معها هزيمة اللاتين[١].

---

(١) ر. سي. سميل، الحروب الصليبية ص ٣٩ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤.

قال ابن شداد[1]: كان صلاح الدين رحمه الله، وقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوارحه استيلاءً عظيماً بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته ولا كان له اهتمام إلا برجاله . . . فلما دقت ساعة الخطر التحم جيش المسلمين بقيادة صلاح الدين مع جيش المملكة اللاتينية بقيادة ملك بيت المقدس في الثالث من تموز سنة ١١٨٧ م في حطين بالقرب من المكان الذي ألقى فيه السيد المسيح عظته الشهيرة، العظة على الجبل. هناك انتصر صلاح الدين وأسر من أسر وكان على رأسهم ملك بيت المقدس «غي دي لوزينيان» الذي استقبله صلاح الدين استقبالاً ينم عن كرم ونبل. أما معاملة صلاح الدين لأرناط حاكم الكرك الذي كان قد نقض العهد وهاجم الحجاج المسلمين وقوافلهم التجارية التي كانت تمر بالقرب من حصنه، عامله معاملة تختلف عن المعاملة الحسنة التي عامل بها ملك بيت المقدس لأنه كان قد أقسم أنه سيقتل أرناط عدو الإسلام إن ظفر به.

ولقد ذكرت معركة حطين لأن نتائجها لم تقتصر على القضاء على جيش مملكة بيت المقدس بل كان لها نتائج خطيرة في سائر الدويلات اللاتينية التابعة لها. لأن طبرية استسلمت ووصلت جيوش المسلمين إلى عكة وغنم المسلمون منها مقادير كبيرة من البضائع والحرائر والمعادن. . ومن هناك أرسلت فرق من الجنود إلى نابلس وتبنين وأماكن أخرى في شمالي فلسطين[2]. وكان صلاح

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢١.
(٢) فيليب حتي، تاريخ لبنان ص ٣٩٦.

الذين قد هاجم قوات الصليبين في بانياس فانتصر عليهم ثم بدأ بمهاجمة حصن بيت الأحزان «بنات يعقوب» في أيار سنة ١١٧٩ م واتخذ مركزاً لعملياته في تل القاضي غربي بانياس «الحدود اللبنانية» وأرسل قوة إلى شمالي البقاع لتجمد تحركات الصليبين نحو حمص وقوة أخرى لتجمد تحركات الصليبين في إنطاكية. ثم أرسل صلاح الدين عساكره ومعها قبائل العرب إلى منطقتي صيدا وصور حتى يحصدوا غلات العدو (١).

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١١ أخبار سنة ٥٧٥ هـ.

الفصل الثالث

الآثار الصليبية في جبل عامل

أولاً: الآثار الاجتماعية والاقتصادية والثقافية:

أ - العلاقات الاجتماعية.
ب - الامتيازات الأجنبية في جبل عامل.
جـ - الاقتصاد في جبل عامل.
د - التفاعل الثقافي والاجتماعي.
هـ - التمازج العرقي.
و - الأثر الديني.
ز - الأثر العمراني.
حـ - الحقد الاجتماعي.

ثانياً: الحصون الصليبية في جبل عامل:

أ - القلعة ودورها.
ب - أنماط القلعة.

---

١ - قلعة تبنين:

أ - اسمها.
ب - بناتها وتاريخ بنائها.

ج ـ ممَّ يتألف هذا الحصن في الوقت الحاضر؟
د ـ ممَّ كان يتألف في القرن التاسع عشر؟
هـ ـ صلاح الدين يستولي على تبنين.
و ـ قلعة تبنين بين التدمير والتعمير.
ز ـ القرى التابعة لإمارة تبنين.
ح ـ زوار القلعة من التاريخين.

٢ ـ قلعة دوبي:

أ ـ موقعها.
ب ـ اسمها.
ج ـ ممَّ يتألف هذا الحصن؟

٣ ـ قلعة شقيف أرنون:

أ ـ موقعها.
ب ـ أسماؤها.
ج ـ بناتها وتاريخ بنائها.
د ـ القلعة بين التدمير والتعمير.
هـ ـ ممَّ يتألف هذا الحصن؟
و ـ تاريخ القلعة.

٤ ـ قلعة شقيف تيرون:

٥ ـ قلعة هونين:

أ ـ اسمها.

ب - تاريخها.
ج - ممَّ يتألف هذا الحصن؟

٦ - قلعة شمع:

أ - موقعها.
ب - ممَّ يتألف هذا الحصن؟

٧ - قلعة مارون:

أ - موقعها.
ب - ممَّ يتألف هذا الحصن حالياً؟

٨ - قلعة أبي الحسن:

أ - موقعها.

٩ - الآثار الصليبية الأخرى:

في صور - في صيدا - في تل المعشوق - في بنت جبيل - في برعشيت - في ديردغيا - في شقرا.

١٠ - القرى التابعة لإمارة صيدا الصليبية.

الآثار الصليبية في جبل عامل

بالرغم من أن الحروب الصليبية كانت غنية في التمثيل الرائع والحوادث المثيرة فإنها كانت حروباً عقيمة هزيلة فيما حققته من نتائج في حقل الفكر والثقافة فهي لم تقتصر في بلوغ غايتها الأساسية، الاستيلاء على الأراضي المقدسة فحسب بل عجزت عن تحقيق شيء ذي قيمة وإن المرء ليستطيع القول إن أثرها في الغرب كان أفضل من أثرها في الشرق لأن الفرنج كانوا عموماً أقل رقياً من العرب ولأن العداوة بينهم وبين الشرق جعلت الشرقيين لا يتأثرون بهم[1]. فهذه الحروب فتحت أمام الغربيين كوى أطلوا منها على آفاق رحبة بعيدة لا سيما في حقلي التجارة والصناعة.

أما أثرها في الشرق فقد كانت خراباً على طول الشاطىء وحقداً وكراهية بين المسلمين والنصارى[2].

ولقد أورد ابن بطوطة الذي مرّ في هذه البلاد عام ١٣٢٧م، ما يعبر عن وضع هذه البلاد بعد فترة قصيرة من نهاية الصليبيين في بلادنا عام ١٢٩١ م بقوله[3]: «ثم سافرت إلى عسقلان، وهي الآن

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي العثماني، ص ٢٠٦

(٢) فيليب حتي، تاريخ لبنان، ص ٣٧٨.

(٣) ابن بطوطة، رحلته ص ٥٠ - ٥١.

خراب... ثم سافرت على الساحل فوصلت إلى مدينة عكة وهي خراب. وكانت عكة قاعدة بلاد الإفرنج بالشام وهي خراب ثم سافرت منها إلى مدينة صور وهي خراب وبخارجها قرية معمورة. ثم سافرت منها إلى مدينة طبرية وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها إلا رسوم تنبىء عن عظمتها وعظم شأنها».

وبالرغم من ذلك فإن الصليبيين تركوا آثاراً في الشرق يمكن أن نقسمها إلى قسمين:

أولاً: آثار اجتماعية وثقافية.
ثانياً: آثار مادية كالقلاع والحصون والأبراج.

أولاً: الآثار الاجتماعية والثقافية والاقتصادية

ـ العلاقات الاجتماعية:

قبل أن أتكلم عن هذه الآثار لا بد لي من تحديد العلاقات الاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة بين سكان جبل عامل أثناء وجود الصليبيين. ولعل الرّحالة ابن جبير[1] «١١٤٤ ـ ١٢١٧ م»

(١) هو ابن الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني: كان من علماء الأندلس في الفقه والحديث وكانت له مشاركة في الآداب كان أديباً بارعاً شاعراً مجيداً كريم الأخلاق لم تقم شهرته إلا على كتابه المعروف برحلة ابن جبير الذي وضعه بعد أن قام برحلات ثلاث أهمها رحلة استغرقت أكثر من ثلاث سنوات ووصف في هذه الرحلة كل ما مر به من مدن وما شاهد من عجائب البلدان وغرائب المشاهد واعتنى عناية خاصة بوصف النواحي الدينية والمساجد والمشاهد وقبور الصحابة ووصف كذلك الكنائس والمعابد=

قد أعطانا صورة واضحة عن هذه العلاقة خاصة وأنه تجوّل في هذه البلاد ورأى كيفية معاملة الفرنج للسكان المسلمين. فهو يختتم كل كلام بالدعاء إلى الله تعالى والتوكل عليه «جل جلاله» ويرسل الأدعية للمدن التي زارها فمنها ما يدعو لها «يحرسها الله، وعمّرها الله، وحماها الله» أو بأعادها الله إذا كانت ممن خرج من يد المسلمين إلى أيدي الفرنجة فيقول في ذكر مدينة بانياس «حماها الله» مشيراً إلى التعامل بين الإفرنج والمسلمين «هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين وهي صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ويفضي إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجاء القلعة وكانت بيد الإفرنج فاسترجعها نور الدين رحمه الله ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج يسمى هونين بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ، وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة فهم يتشاطرون الغلة على السواء ومواشيهم مختلطة ولا حيف يجري بينهما فيها. . إلى أن يقول: بأن حصن تبنين كان موضعاً لتمكيس القوافل والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس، ولا اعتراض على التجار فيه لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون[1] وهو محل التعشير والضريبة فيه قيراط من الدينار والدينار أربعة وعشرون قيراطاً. وأكثر المعترضين على هذا

= والقلاع. . . وذكر الحروب التي كانت دائرة في الشرق بين الصليبيين والمسلمين وما كان عليه الأهالي مسلمين ومسيحيين من علاقات حسنة في خلال تلك الحروب.

(١) الملك الملعون هو صاحب حصن عكا وابن صاحبة حصن تبنين يسميها الخنزيرة.

المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين. وذلك لمقدمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم وقال الإفرنج: إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئاً فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم وللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهله عليهم ويخفف عنهم عنتهم.

هذا وقد ترك الصليبيون لسكان البلاد حريتهم في مختلف شؤونهم الخاصة: الدينية والاقتصادية. وكانوا يحاولون التقرب منهم في كثير من الأحيان «أورد أسامة بن منقذ في كتابه كثيراً من العلاقات الطيبة بين المسلمين والصليبيين». ولكن الصليبيين لم يختلطوا بهم بعد أن ظلوا يكونون جاليات في المدن أو في القلاع بعيدين عن الاندماج بالوطنيين[1].

ويورد ابن جبير في رحلته من تبنين إلى عكة ومروره بضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه «نعوذ بالله من الفتنة» وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ١٣٤.

أيضاً. ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل مارساً يتقهم كلها للمسلمين وهي القرى والضياع. ثم يذكر ابن جبير ما يسميه بفجيعة طارئة على المسلمين «أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك به ويحمد سيرة ضده وعدّوه المالك له أيضاً من الإفرنج ويأنس بعـدله فإلى الله المشتكى من هذه الحال وحسبنا تعزية وتسلية ما جاء في الكتاب العزيز: ﴿إن هي إلا فتنتك تضل منها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ سورة الأعراف الآية ١٥٥».

أما إكرام المسلمين للضيف وعاداتهم العربية الأصيلة فلم يطرأ عليها شيء تحت حكم الفرنج فهم يقدمون لضيوفهم كل مـا يستطيعون ويقول ابن جبير: «أنزلنا يوم الاثنين السابع عشر سبتمبر بضيعة من ضياع عكة على مقدار فرسخ ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الإفرنج على من فيها من عمارها من المسلمين. فأضاف جميع أهل القافلة ضيـافة حـافلة وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متسعة بمنزله وأنالهـم ألواناً من الطعام قدمها لهم فعمهم بتكرمته وكنا فيها حضر هذه الدعوة».

وفي ذكره مدينة عكا «دمرها الله وأعادها» يقول: . . . انتزعها الإفرنج من المسلمين في العشر الأول من المئة السادسة فبكى الإسلام ملء جفونه وكانت أحد شجونه فعادت مساجدها كنائس وصوامعها مضارب للنواقيس، وطهّر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدي المسلمين مسجداً صغيراً يجتمع الغرباء منهم فيه لإقامة فريضة الصلاة. . . وفي شرقي البلدة العين المعروفة بعين البقر وهي

التي أخرج الله منها البقر لآدم «صلعم». . وعليها مسجد بقي محرابه على حاله ووضع الإفرنج في شرقيه محراباً لهم فالمسلم والكافر يجتمعان فيه يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه وهو بأيدي النصارى محفوظ وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين. . .

أما في ذكره لصور «دمرها الله تعالى» فهي مدينة يضرب بها المثل في الحصانة لا تلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة قد أعدها الإفرنج مفزعاً لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانهم هي أنظف من عكة سككاً وشوارع، وأهلها التي في الكفر طبائع، وأجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع، فخلائقهم أسجع[1] ومنازلهم أوسع وأفسح وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن. وعكة أكبر وأطغى وأكفر. أما أسرى المسلمين لدى الفرنج فيذكر ابن جبير أنهم كانوا يرسفون في القيود ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد والأسيرات المسلمات كذلك في أسوقهن خلاخيل الحديد فتنفطر لهم الأفئدة ولا يغني الإشفاق عنهم شيئاً[2]. ثم يورد بأن المغاربة كانوا يعاملون معاملة خاصة منهم الغرباء والمنقطعون عن بلادهم. . . وقد كان نور الدين. . . نذر في مرضة أصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى المغاربة فلما استبل من مرضه أرسل في فدائهم فسيق منهم نفر ليسوا من المغاربة وكانوا من حماة من جملة عمالته فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة وقال: هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم والمغاربة غرباء لا أهل لهم. . . وقيض الله لهم

(١) أسجع: ألطف.
(٢) ابن جبير، ص ٢٨٠.

بدمشق رجلين من مياسر التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء: أحدهما يعرف بنصر بن قوام والثاني بأبي الدار ياقوت مولى العطافي وتجارتهما كلها بهذا الساحل الإفرنجي ولا ذكر فيه لسواهما ولهما الأمناء من المقاربين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما وشأنهما في الغنى كبير وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير، وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهرا من أمانتهما وثقتهما وبذلهما أموالهما في هذا السبيل، فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلا بأيديهما فهما طول الدهر بهذه السبيل ينفقان أموالهما ويبذلان اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله الكافرين[1].

أما عن العادات والتقاليد لدى الصليبيين فيمكن القول بأن الإفرنج استخدموا من السوريين الأطباء والطباخين والخدم والحرفيين والعمال وارتدوا الثياب الشرقية وأدخلوا في غذائهم فواكه البلاد وألوان طعامها واستعملوا الزجاج على نوافذهم والفسيفساء على أرضيات الحجر والنوافير في ساحات بيوتهم والتي تمَّ تصميمها على الطراز السوري وأشركوا الراقصات في إحياء حفلاتهم، والنادبين المحترفين في جنائزهم[2]، وهكذا فإن تناقص إمداد الصليبيين في بلاد الشام جعل من المتعذر عليهم الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليدهم الغربية. فالعلاقات الودية التي قامت في كثير من الأحيان بين حكام الدول اللاتينية والإسلامية جرى تصويرها على أنها جديرة

---

(١) ابن جبير، ص ٢٨١.

(٢) ر. سي. سميل. الحروب الصليبية ص ٤٧.

بالاهتمام، إذ لم تؤدِ السياسة في بعض الأحيان إلى التحالف وحسب بل وتميزت العلاقات الشخصية بينهم في كثير من الأحيان بالمجاملة والصداقة. ويروي أسامة بن منقذ كثيراً من غرائب أخلاق الصليبين وعاداتهم وتقاليدهم، وفي الوقت نفسه يحكي لنا كثيراً من القصص الطريفة التي تشهد على مدى تأثر الصليبين بالبيئة الشرقية ومحاكاتهم العرب في كثير من عاداتهم[1]. ومذكراته هي حقيقة تشكل دليلاً على محدودية هذا النمط من الأدلة في العلاقات.

وأسامة ينحدر من أسرة نبيلة كان اثنان من الموضوعات الرئيسية ، تعليمه هما الصيد والحرب وكانت معظم ذكرياته تتعلق بإحدى ـاتين الممارستين، وكذلك كانت تشكلان الاهتمامين الرئيسين لنظراء أسامة من الطبقات العليا بين الإفرنج وأقصى ما يمكن استنتاجه من شهادته هو أن العلاقات الودية التي قامت في كثير من الأحيان بين أعضاء الطبقة العسكرية الحاكمة في كل من الجانبين والذين اتفقت نظراتهم وميولهم في كثير من الأمور بحكم مركزهم الممتاز في المجتمع وما اشتركوا فيه من حماس تجاه الحرب والخيول والعبيد.

كذلك يبدو أن الأوضاع التي عاش فيها الصليبيون في الشام أدت إلى ظهور عدة أمراض خلقية حتى انحرف بعضهم نحو الشذوذ الجنسي الأمر الذي جعلهم يلجأون إلى فكرة شراء نساء من غرب أوروبا وجزائر البحر المتوسط للترفيه عن المحاربين، من ذلك

(١) أسامة بن منقذ، (طبائع الإفرنج وأخلاقهم) كتاب الأعتار ص ١٣٢ - ١٤١.

ما رواه عماد الدين الكاتب والمؤرخ أبو شامة من أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا سنة ١١٨٩ أن «وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر «جزر البحر» واغتربن لإسعاف الغرباء وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأسقياء وأنهن لا يمتنعن عن العزبان ورأيهن أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة لا سيما فيمن اجتمعت فيه عوية وعزبة»[١].

كذلك يبدو أن المسلمين استطاعوا أن يبقوا على عاداتهم الخاصة بهم بعدما يدفعون الجزية للإفرنج فلقد ذكر ابن جبير في رحلة قام بها من دمشق إلى عكا سنة ١١٨٤ م وفي الطريق بين تبنين والساحل لاحظ أن المسلمين كانوا يدفعون للإفرنج نسبة من إنتاجهم السنوي، وكذلك ضريبة الرؤوس، وضريبة على أشجار الفاكهة وفيما عدا ذلك فهم:

Ils sont maîtres de leurs habitations et s'adimistrent comme ils l'entendent.

ب ـ الامتيازات الأجنبية في جبل عامل:

بعد احتلال مدينة صور ومساهمة البنادقة في ذلك عندما قدموا أسطولهم وشددوا الحصار عليها فرضوا شروطاً معينة تحققت لهم بمعاهدة عقدت سنة ١١٢٤ م بينهم وبين الفرنج حصلوا بموجبها على امتيازات هامة تجارية وسياسية. استيطانية كبيرة في غالبية المدن

---

(١) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي ص ١٨٤.

التي احتلها الفرنج في جبل عامل وخاصة مدينة صور. وقد وقع المعاهدة عن البنادقة قائد الأسطول «دومينيكو ميشل» وعن الفرنج وصي العرش «غليوم دوبور Guillaume de Bures وبطريرك بيت المقدس غورمون Gormond». ولقد نصت هذه المعاهدة على أنه في كل المدن التابعة للملك مباشرة أو في الإقطاعات يكون للبنادقة حي بكامله لهم وكنيسة وحمام وغرف وذلك إلى الأبد ومن جيل إلى جيل دون أن يتوجب عليهم أية ضريبة. كما نصت على أن يسمح للبنادقة باستخدام أوزانهم ومقاييسهم في كل معاملاتهم حتى مع الآخرين، واشترط البنادقة على الفرنج إعطاءهم ثلث مدينة صور عند سقوطها وثلث الأراضي والقرى المحيطة بها في جوارها، كما نصت الاتفاقية على أن هذا الثلث يملكه البنادقة ولهم فيه كامل الحرية والسيادة دون قيد ولهم فيها حق الإرث. وحصل البنادقة أيضاً على بندٍ ينص على إعطائهم ٣٠٠٠ دينار صوري سنوياً يعطى لهم من صندوق المالية الملكي في صور كما منحوا حرية جمركية وأعفي التجار البنادقة من أي رسم دخول أو خروج من المملكة. كما ألزموا الفرنج بعدم رفع الرسوم الجمركية المعمول بها على الدول والشعوب التي تتعامل تجارياً مع البنادقة[1].

ولقد أورد Rey[2] وثيقة تعود إلى سنة ١١٢٤ م وفيها تعداد لعدد كبير من القرى والأراضي الواقعة في جوار صور أو في داخلها تعود للبنادقة منها مثلاً برج وثلاثة كنائس لسان مارك وسان جاك

---

(١) R. Grousset. Histoires des croisades. tome I p. 605.

(٢) Rey. E. les colonies Franques crux XII et XIII siecles. p. 4. 72.

وسان نقولا وهناك فنادق وحمامات وبيوت ومتاجر. أما وكيل البندقية في صور سنة ١٢٤٤ م فكان اسمه جورج مارسيل.

ولقد برز لهذه الامتيازات التي نالتها البندقية نتائج ضخمة فهي مؤسسات مستقلة تتمتع بضمانات وامتيازات اقتصادية وقضائية حقيقية مدعومة من مدنها الأصلية في إيطاليا وبتدخلها السياسي والعسكري.

ولقد استطاع البنادقة بموجب الاتفاقية المذكورة أن يملكوا في صور وجوارها طيلة حكم الفرنج الذي انتهى عام ١٢٩١ م أملاكاً تابعة لهم وردت في كتاب Rey[١] منها أماكن يمكن تحديدها وأماكن لم يحدد موقعها بعد.

ج ـ الاقتصاد في جبل عامل:

إن الحوافز التي كان مبعثها الحروب الصليبية والتي عملت على تنشيط التجارة والحج إلى الأراضي المقدسة تنعكس في الأخبار والروايات التي تحدثت إلينا من الرحالة العرب. وقد أكثر هؤلاء الرحالة الجغرافيون من ذكر صور لأنها كانت تأتي في المرتبة الثانية بعد عكة في الازدهار والعمران أيام الصليبيين[٢] فإن الإدريسي الرحالة المغربي كتب عام ١١٥٤ قائلاً[٣]: «وفي صور يصنع أفخر

---

(١) Rey. E. les colonics Franques des syries aux XII et XIII siécles, p. 471 - 502.

(٢) أبو شامة، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٤.

(٣) فيليب حتي، تاريخ لبنان ص ٣٨٥.

الزجاج والخزف ويصنعون أيضاً نوعاً من القماش الأبيض لا يعدله قماش آخر من حيث النوع وجودة الصنع ويصدرونه إلى جميع البلدان ولا يصنع قماش يضاهيه من حيث جودته في أي من الأقطار الأخرى».

ثم يصف لنا الإدريسي صيدا قائلاً[1]: «إنها مدينة كثيرة السكان وأسواقها مزدحمة والأسعار فيها منخفضة وتحيط بها بساتين وأشجار والماء فيها وافر» وقد كان وصف الإدريسي لصيدا آخر وصف لعمران صيدا وازدهارها. أما الرحالة اليهودي بنيامن التودلي الإسباني الذي مرّ في لبنان بعد مضي ١٥ سنة فإنه يذكر الزجاج الصوري الشهير والصباغ الأرجواني الذي اشتهرت به هذه المدينة التجارية التي كان يؤمها التجار من كل أنحاء المعمورة.

والمؤرخ وليم الصوري، يذكر لنا المياه الغزيرة في ضواحي صور «إشارة إلى مياه رأس العين» التي تسقي الجنائن الجميلة وتروي بساتين قصب السكر يقول وليم الصوري: «يصنعون من عصير هذا القصب مادة اسمها السكر «Zachara» وهي مادة من أثمن المواد وضرورية لصحة الإنسان ويصدر التجار هذه المادة من صور إلى أقصى بلدان العالم». وقد أعجب راهب كريتي اسمه يوحنا فوكاس «١١٨٥» بمدينة صور إذ قال: «صور تفوق بجمالها سائر المدن الفينيقية، فهي مثل طرابلس مبنية على شبه جزيرة ولكنها

(١) الإدريسي، طبعة غلد مستر ص ١٥.

أكثر منها اتساعاً وأفخم منها دورا وبنايات[1] وقد وجد هذا الراهب فوكاس بيروت «مدينة كبيرة كثيرة السكان».

د ـ التفاعل الثقافي والاجتماعي بين الشرق والغرب:

لقد كان أثر الغرب الثقافي قليلاً جداً وأول ما تبدو معالم هذا الأثر في العلاقات الاجتماعية والدينية. فعامة الناس لم يتأثروا بكثير أو قليل إلا إذا استثنينا الأماكن التي شيدت فيها القلاع والحصون.. إذ لا بد أنه تمّ نوع من التفاعل بين الفريقين بسبب الاتصال والاحتكاك أما المسلمون فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أرفع ثقافة من الإفرنج وكانت نظرتهم نظرة فيها ترفع وازدراء وعليه فلم ير المسلمون أن عند الإفرنج شيئاً يستحق الاهتمام[2].

وأحسن من عبّر عن الموقف هذا من المسلمين تجاه الإفرنج ـ بالنسبة إلى الثقافة والعلم ـ أسامة بن منقذ صاحب شيزر. فقد خلّف لنا أسامة «١٠٩٥ ـ ١١٨٨» ضمنها أمتع الملاحظات وأدقها وأكثرها إنصافاً.

كان أسامة فارساً مغواراً شاعراً يحسن الطراد والصيد، وكان أيام الحرب يشترك في القتال ضد الإفرنج أما في أيام الهدنة فإنه كان يعاشرهم ويؤاخيهم. وكان الإفرنج في نظره قوماً «ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة»[3]. ولما ذهب أسامة مرة إلى صور دخل الحمام وجد هناك امرأة من نساء الإفرنج فكاد لا يصدق ما تراه

(١) فيليب حتي، تاريخ لبنان، ص ٣٨٧.
(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٨٧.
(٣) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار ص ١٣٢ ـ ١٣٥.

عينه فأرسل خادمه ليتأكد من صحة الأمر[1] ويسخر أسامة من عادات الإفرنج البدائية لا سيما من رمي المتهم بالماء للفصل فيما إذا كان مذنباً أو بريئاً ومن عادة المبارزة بينهم للفصل في من هو على حق. وكان الإفرنج الجدد الذين يفدون إلى البلاد لأول مرة في نظر أسامة قوماً على غاية من البساطة والغفلة إذا ما قوبلوا بالإفرنج القدامى الذين سبقوهم والذين كانوا قد تمرسوا بعادات البلاد. ويظهر أن فارساً من فرسان الإفرنج كان يخاطب أسامة بقوله: «أخي» نسبة إلى الصداقة بينهما. وقد طلب هذا الفارس مرة من أسامة أن يعطيه ابنه الأصغر ليأخذه معه إلى أوروبا. ولكن أسامة أجاب بلباقة ولطف أن جدته شديدة الكلف به فلا يستطيع والحالة هذه أن يلبي طلب صديقه الفارس ولكن أسامة لم يتمالك في نفسه عن إبداء دهشته من هذا الطلب إذ كيف يعقل أن يطلب نصراني مثل هذا الطلب من رجل مسلم[2]؟.

كانت اللغة والدين العقبتين الكؤودتين اللتين حالتا دون التمازج الاجتماعي والتلقيح الثقافي. وقد تعلم بعض الفرنجة اللغة العربية وأتقنوها بينما لا نعلم أحداً من المسلمين تعلم اللاتينية أو الإفرنسية القديمة. فقد كان العربي المسلم الذي يتكلم لغة القرآن يراها حطة على نفسه أن يتعلم لغة الكفار. أما وليم الصوري ووليم الطرابلسي «توفي ١٢٧٣» فقد ولدا في لبنان - وكانا يجيدان لا اللغة العربية المحكية فحسب بل العربية الفصحى أيضاً وقد وجد أمراء

(١) نفس المرجع ص ١٣٧.
(٢) نفس المرجع ص ١٣٢.

الإفرنج وإقطاعيوهم وتجارهم ورهبانهم إن من الخير لهم أن يتعلموا العربية[1]. ويذكر لنا كاتب سيرة الملك لويس التاسع أن عدداً من الإفرنج كانوا يعرفون العربية. ولما أرسل رئيس طائفة الحشاشين «الإسماعيلية» وفداً إلى لويس التاسع احتاج الرسل إلى تراجمة من الإفرنج ينقلون الرسالة بواسطتهم غير أنه لَمّا أرسل راشد الدين سنان رئيس الطائفة الأسبق ـ وكان يعرف عند الإفرنج بشيخ الجبل ـ رسـلاً إلى صلاح الدين عند محاصرته عكة «فإنهم كانوا يلبسون ثياب الإفرنج ويتكلمون لغتهم». ذلك أنهم كانوا عرباً ويتخفون بزي الإفـرنج رغبـة منهم في الـوصـول إلى قتـل ملكهم «أي ملك الإفرنج»[2].

أما علاقة الموارنة في لبنان بالفرنج فقد كانت ودية منذ وصول الحملة الصليبية الأولى بعدما قدّموا لهذه الحملة أدلاء يرشدونهم إلى الطرق والمعابر وبعدما أرسلوا فرقة من النشابة المتطوعة إلى مملكة بيت المقدس. وحسب تقاليد الموارنة فان لويس التاسع كان أول صديق فرنسي لهم: تقول الرواية: إنه عندما نزل إلى البر في عكا تقدّم إليه وفد مؤلف من ٢٥ ألف ماروني ومعهم المؤن والهدايا. وفي هذه المناسبة سلّمهم رسالة مؤرخة في ٢١ أيار سنة ١٢٥٠ م فيها تصريح بأن فرنسا تتعهد حمايتهم ويقول في الرسالة «نحن مقتنعون بأن هذه الأمة التي تعرف باسم القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسية[3].

(١) فيليب حتي، تاريخ لبنان ص ٣٩١.
(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٩٢.

وقد سبب التقارب بين الصليبيين والوطنيين في لبنان وغيره من المناطق الصليبية في الشرق ظهور أجيال يفهمون عادات الشرق وتقاليده وطرق معيشته وهذه الأجيال نقمت عليها فرنجة أوروبا واتهمتها بالابتعاد عن الروح الصليبية وأطلقوا عليها لقب «Poulain» وهي نتاج التزاوج بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين الشرقيين المحليين من أرمن وسريان وغيرهم. كما أنهم أنشأوا فرقاً عسكرية من مرتزقة مختلفة المذهب والعنصر عرفت باسم توركوبولي «Torcopoli».

أما من الناحية العسكرية فإن الصليبيين اعتمدوا دائماً أسلوب الحرب السريعة الخاطفة وذلك بجعل قوتهم العسكرية متحركة ومتمركزة في العديد من القلاع والحصون مما سمح لهم بسهولة مراقبة تحركات القوى الإسلامية ومهاجمتها قبل أن تستكمل استعدادها[1] وهذا ما سنراه عند الحديث عن قلاع وحصون وأبراج الصليبيين في جبل عامل.

على كل فالصليبيون قد نقلوا خلال قرنين من الزمن «١٠٩٩ م - ١٢٩١ م» كثيراً من ركائز التراث الشرقي والحضارة العربية وهي الركائز التي أثرت في أوروبا وكانت أساساً لما عرف بالنهضة الأوروبية «والحديث عن ذلك يخرج عن موضوعنا الأساسي» لذلك لا بد لي من العودة إلى إبراز أهم الآثار الدينية والاجتماعية التي تركها الصليبيون في بلادنا وهي:

---

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ١٣٤.

هـ ـ التمازج العرقي:

حدث هذا التزاوج بين كثير من الصليبيين الغربيين والمسيحيين الشرقيين ونتج ظهور أجيال جديدة أطلق عليها «كما ورد آنفاً» اسم «Poulain» وكانوا غير راضين عنها. كما حدث هذا التمازج العرقي خلال الحروب بين الصليبين والمسلمين نتيجة الغزو والسبي وبيع الرقيق. ولكن التمازج الكبير حدث عند نهاية الحروب الصليبية إذ بقيت أكثرية السكان الصليبيين غير المحاربة في الشرق وخاصةً في لبنان[1] ولم يكثر التزاوج بين الإفرنج والمسلمين والتزاوج دليل على الاختلاط والتفاعل الاجتماعي وقلّ من المسلمين من كان يتزوج من أوروبية غير أنهم كانوا يتسرون منهن السراري اللواتي كن يقعن في الأسر ولا شك في أن عائلات إفرنجية عديدة ظلت في البلاد بعد القضاء على الصليبيين. وقد اندمجت هذه العائلات أخيراً بأهل البلاد اندماجاً كلياً فقدوا معه كل طابع لاتيني[2].

وهناك عائلات لبنانية عديدة تدعي أنها من أصل إفرنجي وتحتفظ بأسماء لاتينية تشير إلى أنها تحدرت من الصليبيين الذين تخلفوا في البلاد أمثال عائلة الصليبي[3]، وبردويل «Baldwin»، وفرنجية والدويهي «Dedouhai»، ودريان «Comte dorient» وطربية «Torbey» وأكثر هذه العائلات تنتمي إلى الطائفة المارونية.

---

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ٢٠٦.
(٢) فيليب حتي، تاريخ لبنان ص ٣٨٩.
(٣) راجع نجيب د. الصليبي، تاريخ العشيرة الصليبية «بيروت ١٩٥٠» ص ٨ وما يليها.

أما في المدن حيث كانت تقيم جاليات لاتينية فقد نشأ جيل هجين من أمهات وطنيات وكانوا يسمون الواحد من هؤلاء الهجناء «بولان Poulain» ومعناه مهر صغير وكان هؤلاء الهجناء في غالب الحالات يتبعون دين أمهاتهم لا دين آبائهم وكانوا يتكلمون العربية ويحجبون نساءهم ويحجرون عليهن بشدة ويمنعونهن من الذهاب إلى الكنائس(١).

ولقد تحولت جاليات صليبية إلى مذهب المنطقة المتواجدة فيها وذلك حماية لأنفسهم.

فالجاليات الصليبية في جبل عامل تحولت إلى دين الإسلام المسيطر هناك وللدلالة على ذلك نرى أنه أن بلدة تبنين التي كانت حصناً للصليبيين ومركزاً لتمكيس القوافل والتي ذكرها عدد كبير من الرحالة العرب والأجانب الذين زاروها أيام تواجد الصليبيين أو في القرون التي تلت ذلك أشاروا إلى أن سكانها هم مسيحيون فالرحالة لويس لورتة(٢) عميد معهد الطب في ليون والذي مرّ في لبنان في تبنين بالذات في أواخر القرن التاسع عشر قال: «وتبنين أشقى القرى التي زرناها يسكنها مسيحيون وقد شكوا إلينا بمرارة ما يقاسونه من الإدارة العثمانية».

أما إدوارد روبنصون الرحالة الإنكليزي فقد أورد في كتابه «يوميات في لبنان ص ١٦٦» بأن عدد الذكور في تبنين يبلغ ثلاثمائة وثمانون شخصاً منهم مئة وثلاثون من المسيحيين ومئتان وخمسون من

(١) فيليب حتي، تاريخ لبنان ص ٣٩٠.
(٢) مشاهدات في لبنان، لويس لورته ـ تعريب كرم بستاني ص ١٨٣.

المسلمين أي نسبة المسيحيين ٣٥٪ من السكان علماً بأن النسبة الحالية للمسيحيين في البلدة لا تتجاوز ١٠٪.

وبالرغم من أن جميع الرحّالة الأجانب كانوا يكتبون لتحريك وإثارة المشاعر والعواطف الدينية لدى الغرب الأوروبي حتى في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مما ساعد وأدى إلى توزيع وطننا العربي بين فرنسا وإنكلترا بعد الحرب العالمية الأولى. وبالرغم من ذلك أقول بأن جاليات كبيرة من المسيحيين استعربت وأسلمت وذابت في بوتقة الإقليم الذي عاشت فيه وملامح السحنة الأوروبية ما زالت ظاهرة حتى اليوم في كثير من طبائع وأخلاق ومعاملات. ولن أتعرض بالتفاصيل لأكثر من ذلك فهذا هو دور الباحث الاجتماعي.

أما أنطونينوس مارتير «Antoninus Martyr» فقد ذكر في أواخر القرن السادس عشر أن «صرفة Sarepta» مدينة مسيحية صغيرة[1]. ولقد اشتهر خمر الصرفند كثيراً.. ولم يذكر أحد أنها كانت أسقفية قديمة لأن الصليبيين أول من جعل منها كرسي أسقف لاتيني تابع لرئيس أساقفة صيدا وشيدوا كنيسة صغيرة قرب المرفأ على البقعة المشهورة حيث سكن إيليا وأقام ابن الأرملة من الموت. وقد ذكر فوكاس «Phocas» نحو عام ١١٨٥م وجود حصن على شاطىء البحر[2]. ويتابع الدكتور روبنصون قائلاً: إن الجامع حلّ

(١) صرفة هي صرفند نفسها وقد ذكرت في العهد القديم باسم «صرفاد» Zarephath وفي العهد الجديد باسم صرفة Sarepta إدوارد روبنصون، تعريب أسد شيخاني: يوميات في لبنان ص ٥٣.

(٢) إدوارد روبنصون، تعريب أسد شيخاني يوميات في لبنان ص ٥٣.

محل الكنيسة المسيحية. ويقول السياح السابقون: إن الجامع بني على أنقاض بيت الأرملة وقد يكون قبر الخضر حل محل الجامع[1].

و ـ الأثر الديني:

لم يكن للصليبيين أهداف تبشيرية. لذلك كان أثرهم محدوداً في التعاطف مع الموارنة الذين ساعدوهم في معظم حروبهم «كانوا أدلاء لهم في الحملة الصليبية الأولى» وكان من نتيجة هذا التعاطف الصلة الحميمة والوثيقة التي قامت بين الموارنة وفرنسا منذ عهد لويس التاسع. فالتقاليد المارونية تذكر أن لويس التاسع وجه أثناء وجوده في عكا سنة ١٢٥٠ م رسالة إلى بطريرك الموارنة يذكر فيها أن فرنسا تعتبر الموارنة قسماً من الأمة الفرنسية «كما ورد سابقاً» وينهي الملك رسالته بالنص التالي: «أما نحن وكل الذين يخلفوننا على عرش فرنسا فنتعهد بأن نوليكم أنتم وشعبكم نفس الحماية التي للفرنساويين أنفسهم وبأن نعمل على الدوام كل ما هو ضروري لسعادتكم[2].

إن الخيبة التي منّيت بها الحملات الصليبية في الوصول إلى غايتها وموت الدوافع التي كانت تدفع بالناس للالتحاق بها مهدا الطريق لفكرة جديدة هي أساس مبدأ التبشير المسيحي.

ففي عام ١١٥٤ م أسس راهب صليبي في الأرض المقدسة

---

(١) رحلاتساندز: ص ١٦٦: لم يهتد المسيحيون إلى موضع هذا الجامع فقال البعض إنه في المكان الذي لقي فيه السيد المسيح المرأة السورية الفينيقية (الكنعانية) راجع إنجيل متى الأصحاح ١٥ العدد ٢٢.

(٢) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ٢٠٧.

رهبنة عرفت فيما بعد بالرهبنة الكرملية نسبة إلى جبل الكرمل حيث كانت تقيم ومن ثم انتشروا في سورية ولبنان. وفي عام ١٢١٩ م نزل القديس فرنسيس الأسيسي مؤسس الرهبنة الفرستيكانية على شاطىء عكة وبعد مضي سنتين جمع أتباعه حوله وكانوا فيما بعد نواة الجالية الفرستيكانية في الأرض المقدسة «فلسطين» واتخذت عكة مقراً رسمياً للرئيس الفرستيكاني العام في المنطقة[١].

هذا وقد بنى الصليبيون عدداً كبيراً من الكنائس في المناطق التي سيطروا عليها معتمدين على الهندسة اللاتينية القوطية التي كانت معروفة آنذاك في أوروبا ونذكر منها كنيسة مار مرقس في صور «حفريات صور» وكنيسة مار يوحنا في جبيل[٢].

ز ـ الأثر العمراني:

لم يبق من الآثار العمرانية المدنية الصليبية شيء لأن عادة تخريب المدن التي استردها المسلمون لا سيما إذا كانت موانىء والتي بدأ بها صلاح الدين استمرت أيام المماليك لا بل زادت عنفاً. لأن المماليك هدموا القصور والمباني والموانىء على اختلاف أنواعها حتى أصبحت سياسة يصح أن نسميها سياسة «حرق الأرض». ولم ينج من التهديم سوى أثر واحد هو مقام الإمام الأوزاعي جنوبي بيروت[٣]. فلا الأيوبيين ولا المماليك كانوا على شيء من القوة البحرية ليدافعوا عن الموانىء ضد محاولات الصليبيين لاستردادها

(١) فيليب حتي، تاريخ لبنان ص ٣٩٥.
(٢) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص ٢٠٨.
(٣) نفس المصدر السابق.

فإن بناء أساطيلهم كان يعتمد على خشب الأرز من لبنان التي أصبحت موانيه الآن في أيدي الصليبيين. وكان المسلمون يخشون أكثر ما يخشونه رجوع الإفرنج الذين جلوا إلى قبرص بالإضافة إلى ما أدى إليه اجتياح المغول والزلازل التي توالت زادت من حدة الخراب.

ففي عام ١١٨٥ مرّ ابن جبير في مدينة صور وذكر أنها مدينة لا مثيل لها في مناعة تحصيناتها ولكن بعد قرن من الزمن ذكر أبو الفدا عنها أنها مدينة خربة[١].

ومع ذلك فقد ترك الصليبيون في منطقة جبل عامل قلاعاً حربية وحصوناً وأبراجاً وحافظ المماليك على معظمها لاستعمالها الحربي «سأتكلم عنها في القسم الأخير» وأبرزها بقايا البروج المنتشرة على طول الساحل اللبناني السوري وخرائب القلاع الهائمة القائمة عند سفوح الجبال والكنائس العديدة والتي حرص بناتها على أن يكون بناؤها عملاً فنياً يتمشى مع فن العمارة البيزنطي الشائع في بلادهم (ككاتدرائية نوتردام في صور) وقد كان المؤرخ وليم الصوري رئيساً لأساقفة المدينة من عام (١١٧٥ م - ١١٨٥ م) والتي ابدىء بنائها عام ١١٢٧ م. ونظراً لأهمية صور فقد كان أساقفة بيروت وصيدا وصور وعكا وحتى إلى البتراء جنوباً يعتبرون كمساعدين لرئيس أساقفة صور، كما أنه تمّ إنشاء مقراً أسقفياً في بلدة الصرفند بين صيدا وصور[٢].

---

(١) تقويم ص ٢٤٣.

(٢) فيليب حتي، اتاريخ لبنان ص ٣٨١ - ٣٨٢.

ولقد أورد Rey[1] لائحة بقرى تقع في منطقة صور أعطيت للبنادقة في اتفاقية عام ١١٢٤م منها ما زال محتفظاً باسمه حتى اليوم ومنها لم نتعرف على مكانه لتحديد موقعه، وفيما يلي بياناً بأسماء القرى التي ما زالت معروفة حتى اليوم ومحتفظة باسمها العربي وهي:

١ ـ Batiole (باتوليه) بلدة تقع جنوب شرقي صور.
٢ ـ Beris (باريش) بلدة قرب بلدة بافليه من أراضي صور.
٣ ـ Cafardonin (كفردونين) بلدة تقع حالياً في قضاء بنت جبيل متاخمة لقرى قضاء صور.
٤ ـ Canna (قانا) بلدة في قضاء صور إلى الجهة الجنوبية الشرقية منها.
٥ ـ Canoise (الكنيسة) بلدة جنوب شرقي دير قانون.
٦ ـ Darconon (ديرقانون) بلدة قسمت بين البنادقة والفرنج ولا ندري أيها المقصود بها أهي ديرقانون النهر التي تقع شرقي بلدة العباسية أم ديرقانون رأس العين التي تقع جنوبي مدينة صور.
٧ ـ Hanoé (حناويه) بلدة تقع حالياً جنوب شرقي صور.
٨ ـ Henoise (حلوسية) بلدة تقع في قضاء صور.
٩ ـ Harbeel (عين بعال) بلدة تقع إلى الجنوب الشرقي من صور.
١٠ ـ Homesie (خربة الحمصية) قرية من أراضي صور غربي قانا.

---

(١) Rey. E. Les colonies F. de Syries aux XII et XIII siécles p. 448 - 502.

١١ ـ Hyanoz (يانوح) قرية في قضاء صور إلى الشرق منها.
١٢ ـ Joic (جويا) بلدة في قضاء صور تقع إلى الشرق منها.
١٣ ـ Kasemye قرية طالب البنادقة بها وادعوا أنها تتبعهم تسمى اليوم (خربة القاسمية).
١٤ ـ Labosorie (البازورية) شرقي مدينة صور.
١٥ ـ Maharouna (محرونة) قرية للبنادقة ثلثها تقع إلى الشرق من صور.
١٦ ـ Maraque (معركة) قرية تتبع للبنادقة تقع إلى الشمال الشرقي من صور.
١٧ ـ Resconany (رشكنانية) قرية قرب صور طالب بها البنادقة عام سنة ١٢٤٢ م.
١٨ ـ Sedequis (صديقين) قرية إلى جنوب مدينة صور.
١٩ ـ Tayerastrame (ديرانطار) بلدة إلى الجنوب الشرقي من صور.
٢٠ ـ Darzebene (طيرزبنا) تعرف اليوم باسم الشهابية تقع إلى الشرق من مدينة صور.
٢١ ـ Tollifif (قرية تحاذي المجدل) ثلثها للبنادقة.
٢٢ ـ (Tyr) صور هي المدينة الكبرى التي كان لها دور ضخم في عهد السيطرة الفرنجية كان للبنادقة ثلثها حسب الاتفاقية ولهم فيها حي كبير.
٢٣ ـ Zirisia (الزرارية) قرية في جوار صور طالب بها البنادقة إلى الشمال من مدينة صور.

ح ـ الحقد الاجتماعي:

ترك الصليبيون نظاماً إقطاعياً مختلفاً عما كان عليه المسلمون في المناطق الداخلية غير الصليبية وهو نظام أكثر رحمة من النظام الذي فرضه الزنكيون أو الأيوبيون وقد أورد ابن جبير عن الاختلاف في المعاملة ما بين المناطق الصليبية والمناطق الإسلامية ما نصه[1]

«. . انتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القوافل وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة وهي أم الملك الخنزير صاحب عكا دمرها الله. فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ومكس الناس تمكيساً غير مستقص والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ولا اعتراض على التجار فيه لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون وهو محل التعثير والضريبة فيه قيراط من الدينار والدينار أربعة وعشرون قيراطاً».

أما في الضياع الإسلامية فيقول: «رحلنا من تبنين دمَّرها الله وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلهم مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه. . . وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل وتابعتهم كلهم للمسلمين.

وكما أن الصليبين فشلوا في التبشير المسيحي في صفوف المسلمين

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

فإنهم فشلوا كذلك في توحيد المذاهب المسيحية وربطها بالكاثوليكية الغربية وفشلوا أيضاً في إثارة الفتن بين المسلمين أنفسهم ليتسنى لهم العودة من جديد إلى بلادنا ولقد ظهر عامل الخوف من عودتهم أن المماليك خربوا المدن الساحلية وموانئها. فكانت الحروب الصليبية نعمة حضارية على أوروبا تجلت في ما تعلمه الغرب من الشرق في مختلف الميادين (في الأدب ـ الاجتماع.. وغير ذلك) ولكنها كانت تدميراً حضارياً للسواحل وخاصة الساحل اللبناني(١).

ثانياً: الحصون الصليبية في جبل عامل

أ ـ القلعة ودورها:

كانت القلاع مراكز للسلطة. فقائد القلعة وحاميتها كان حاكم الإقليم المحيط بها وكان تحت تصرفه بصورة مستمرة من الوسائل ما يواجه به أي تحدٍ لسلطته وأينما قامت كانت الأبنية المحصنة تشكل قاعدة أمكن منها ممارسة السيطرة وأمكن من داخلها حمايتها والاحتفاظ بها، ولم يكن على القلاع أن تقاوم حصاراً إلا بين حين وآخر(٢). فهي للدفاع عن الحدود فقيل بأن القلعة «حمت الحدود» أو «سيطرت على الوادي» أو «أغلقت الوادي» ففي كثير من الأحيان توقفت حياة الجيش في الميدان (في القرن ١٨) على اتصالاته بمخازن ذخيرته، فإن استطاعت مدفعية العدو المنصوبة على الحصون أن

---

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ٢١١.
(٢)ر. سي. سميل، الحروب الصليبية ص ٥٨.

تشتبك في قتال مع المارين في الطريق اخاد. كان ذلك الطريق خاضعاً في الواقع «لسيطرة الحامية» اما لدى الصليبيين فكانت كل قلعة تسيطر على المنطقة المجاورة لها، ومهما كان موقعها فقد كانت أساسية للاحتفاظ بالسيطرة اللاتينية، وأدرك حكام تلك الدول أهمية القلاع إدراكاً تاماً. فأعطوا الأولوية لتلك القلاع. وبعد أن استولى صلاح الدين على حلب سنة ١١٨٣ م اهتم الإفرنج اهتماماً خاصاً بوسائل الدفاع عن مدنهم التي قامت على «حدود العدو» وقد منحت القلعة حاكمها الأعلى سلطة الإشراف على المنطقة المحيطة بها. فكان بمقدوره أن يستمد من الأرض وسكانها دخلاً على شكل بضاعة ونقود وخدمات دعمت في نفس الوقت حاجاته الشخصية ومكّنته من تنفيذ التزاماته الإقطاعية في الحكم والحرب. وكان الاشراف الذي مارسه جزءاً من السيادة اللاتينية في سوريا، وشكلت القوة التي استند إليها جزءاً من القوة المتوافرة الكاملة لمواجهة الغزو الإسلامي. وارتكزت كافة العوامل: سيطرة الطبقة الحاكمة في المجتمع الإقطاعي، سيطرة الإفرنج على الأرمن والمسيحين والسوريين والمسلمين ومقاومة الإفرنج للهجوم الإسلامي « على القوة التي تجسّدت إلى حدٍ ما في الجيش»، وإلى حدٍ ما في الأماكن المحصنة. وكانت هذه هي الأهمية الحقيقية للقلعة والمدينة المسوّرة في سوريا اللاتينية.

وهكذا فإن المدينة المسورة والقلعة كانتا أداتين عسكريتين خلال فتح الصليبيين لسوريا واستيطانهم فيها وخلال الهجمات الإسلامية المضادة الشديدة على الدول اللاتينية فعندما كان الإفرنج هم الغزاة

استخدمت القلعة كسلاح هجومي وعندما تعرضوا هم أنفسهم للغزو شكلت القلعة الحمى الأخير لسلطانهم وتميزت الحصون الحدودية بأهمية خاصة نظراً لتعرضها بسبب قربها من العدو للهجوم المباغت المتكرر وعندما قوبل الغزاة بالتحدي على الحدود أفادت الحصون الصديقة كقاعدة ومأوى للقوات العاملة هناك. على أنه كان لكل مكان حصين نفس الأهمية الأساسية، فحيثما وُجد كان تجسيداً للقوة ومن ثم المصداق النهائي للاستيطان اللاتيني.

وهكذا فإن الانتصارات الحربية الأولى التي أحرزها الصليبيون في بادىء الأمر - وكانت في الواقع الانتصارات الوحيدة التي أحرزوها - ما كانت لتبعث في نفوسهم الثقة ولا التفاؤل بالمستقبل. وما كان الصليبيون ليطمئنوا إلى مصيرهم وبقائهم في الشرق. وإذا استثنينا الطرفين الشمالي والجنوبي للبقعة التي احتلها الصليبيون نجد أن معظمْ البلاد التي استولوا عليها كانت تقع على الساحل. لكنها كانت تحت رحمة عدد من المدن الداخلية المتسلطة عليها والتي لم تكن أي منها تبعد عن أرض الأعداء أكثر من مسير يوم واحد. والواقع هو أن داخلية البلاد لم تقع في أيدي الصليبيين ولم يستطيعوا أن يخضعوها لسلطانهم نعم لقد كانت هناك مدن في الداخل كحلب وحماه ودمشق وبعلبك تدفع لهم الجزية حيناً بعد آخر ولكن الصليبيين لم يخضعوها لسلطانهم حتى أنْ عواصم الإمارات اللاتينية التي أنشأوها - أيدسا وإنطاكية وبيت المقدس وطرابلس - كان الفرنجة فيها أقلية وأقلية غربية تمثلت السكان ولا هم تمثلوها. والجاليات اللاتينية التي كانت منتشرة لم يكن أكبرها يتجاوز عدد أفرادها الثلاث مئة نفس وفضلاً عن أن هذه الجاليات اللاتينية

كانت مراكز محصورة بالأعداء فإنها كانت أيضاً على خصام ونزاع فيما بينها[1].

ولكي يحتفظ الصليبيون بموطيء لهم على الشاطىء كان عليهم أن يحتفظوا بسيادتهم على البحر لكي يبقوا على الصلات التي تربطهم بمواطنيهم في الغرب ولكن يحظوا بعطفهم فيواصلون إمدادهم بالرجال. ولقد شعر الصليبيون أنهم يستطيعون الاحتفاظ بممتلكاتهم إذا استمر سيل المساعدات بالعتاد والرجال يأتيهم من أوروبا. وإذا ظل أعداؤهم متفرقي الكلمة لا يوحدهم زعيم قوي. فكان عليهم إقامة التحصينات الساحلية لكي يؤمنوا العمليات البحرية. ولذا فإنهم أقاموا عند مدخل الموانىء البحرية في عكا وصور وصيدا أبراجاً عند آخر السور أو الحاجز الذي يمنع الموج. وهكذا بنوا سلسلة من الأبراج يستخدمونها للمراقبة على طول الشاطىء اللبناني لكي يؤمنوا الاتصال بينها. وجميع هذه الأبراج تقوم على موقع أبراج أو قلاع قديمة[2]. كذلك بنى الصليبيون قلاعاً تحيط بالموانىء من جهة البحر.

أما في الأماكن التي كانت المقاومة فيها عنيفة وطويلة الأمد كصور وعسقلان فإن الصليبين بدأوا ببناء قلاع في زمن مبكر. وكانت قلاعهم هذه من العوامل التي عجلت في إخضاع المدن والاستيلاء عليها. وجميع القلاع والحصون الصليبية في جبل عامل يعود زمن بنائها إلى القرن الثاني عشر وبعضها إلى القرن الثالث عشر. أما

(١) فيليب حتي، تاريخ لبنان ص ٣٥٦.
(٢) المصدر السابق ص ٣٥٧.

قلعة البحر في صيدا فإنها بنيت على جزيرة صغيرة عام ١٢٢٧ م - ١٢٢٨ م[١] وكان يربطها بالمدينة جسر طوله ٨٥ يرداً لا يزال قسم منه إلى يومنا هذا. ولما أخذ لويس التاسع بترميم حصونها وقلاعها استعمل مواد البناء ذاته التي كان الرومان والفينيقيون قد استعملوها في بناء تحصينات المدينة. كأعمدة من حجر الغرانيت حمراء ورمادية اللون في مصر. وفي الواقع إن أكثر الحصون والقلاع اللبنانية التي أقامها الصليبيون لم تكن سوى ترميمات أو إعادة بناء حصون وقلاع أقامها إما البيزنطيون أو الرومان أو الفينيقيون أنفسهم. ولقد رمّم المماليك هذه القلاع فيما بعد. ذلك لأن مواقعها الاستراتيجية الممتازة قد استرعت انتباه العسكريين قبل مقدم الصليبيين بأزمنة كثيرة. فالإدريسي الرحّالة والجغرافي المراكشي «توفي ١١٦٦ م» لما زار هذه البلاد قبل فترة الصليبيين جاء على ذكر ثلاث قلاع بين صيدا وبيروت و ١٦ قلعة بين بيروت واللاذقية[٢].

ولقد حرص الصليبيون على أن يسيطروا على المضايق والمعابر الاستراتيجية التي تربط الشاطىء الذي كان في حوزتهم بداخلية البلاد. ولذا فإنهم أقاموا إلى جانب القلاع والحصون الساحلية سلسلة أخرى من القلاع على المرتفعات أو عند سفوح الجبال الغربية المشرفة على الساحل وسأتناول دراسة كل قلعة على حدة.

ب - أنماط القلاع:

بما أن الغاية الأساسية للقلعة هي في المرحلة الأولى من الغزو

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٥٧.

(٢) الإدريسي، طبعة «Gil demeister» ص ١٦ - ١٨ - ٢٠ - ٢٢.

الصليبي الهجوم على المراكز الإسلامية أولاً والدفاع في المرحلة اللاحقة فقد اتبع الغرب الأوروبي أنماطاً معينة من القلاع تختلف في أهميتها وقوتها، فالقلعة ذات الرابية والسور في القرن الحادي عشر والأبراج الحجرية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر والأسوار المتعاقبة للقلعة المتحدة المركز في أواخر القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ينظر إلى كل منها على أنها نمط من التحصين أعلى تطوراً من سابقه الذي نشأ منه. وبما أن رجال الحملة الصليبية الأولى رأوا وهاجموا واحتلوا الحصون البيزنطية والعربية المحصنة بقدرٍ أكبر من المهارة مما حصِّنت به تلك التي عرفتها إذ ذاك أوروبا الغربية فلقد تمثلت الميزات الأساسية البارزة للحصن في احتوائه على ركام ترابي كوسيلة دفاع رئيسية مع حاجز خشبي أو سور حجري يسبقه خندق وتقدمه خندق عادة وأبدت مثل هذه المنشآت أمام المحاصر أكثر من مجرد عائق سلبي، فمن ملجئها قامت الحامية بدفاع نشيط وخلال القرن الثاني عشر أمكن أن يكون السور الحجري منصة قتالية حسنة التجهيز. فكانت على واجهته الداخلية شرفات جدارية وعلى قمته ممشى ذو جدار واقٍ ومن مثل هذه النقاط الممتازة ما تمكن المدافعون من خلال archeres أو من خلال فتحات شرفات الحصن من إطلاق قذائفهم على العدو، وتم أيضاً تعزيز السور بأبراج موضوعة على طوله وأدت هذه المنشآت عدداً من الوظائف النافعة إذ شكلت دعماً للسور ووفرت وسائل الراحة ومكنت المدافعين من القتال من ارتفاع أعلى من ممشى السور الذي يحتمي خلف جدار واقٍ، وبصورة مماثلة في وضع أكثر مواتاة فإذا برزت الأبراج خلف خط السور مكّنت رماة الحامية من الإطلاق على طول واجهتها مقاومة

كذلك أية مفرزة مقتحمة من الجانب، وتمثلت الميزات البارزة في تصميم التحصين في توفير خطوط دفاعية متعاقبة والتحصين الدقيق للداخل (١).

وسأتناول بالتفصيل بعض الحصون والقلاع التي يعود بناؤها إلى الصليبيين مباشرة أو التي قاموا بترميمها واستخدموها في حروبهم ضد سكان جبل عامل في غزواتهم طيلة فترة وجودهم في شرقنا الإسلامي.

١ - قلعة تبنين

أ ـ اسمها:

أصل كلمة تبنين من السريانية Tibnin أي متاين وتقول الرواية إن أول من بنى بيتاً ـ وهو في عمله ـ مرّ به مكاري فقال له: ماذا تفعل؟ تبنين؟ فأجابه: نعم أبني منزلاً فراقت الكلمة لهذا البناء وأطلقها على القرية فيما بعد ويقال أيضاً أن أصل الاسم هو من كلمة تبنيت(٢).

ب ـ بناتها وتاريخ بنائها:

ولقد اكتسبت تبنين شهرتها أول ما اكتسبتها من القلعة التي شيدت فوقها فالمصادر العربية قبل الحروب الصليبية لا تشير بشيء إلى تبنين. وليس في أيدينا ما يشير إلى وجود القلعة قبل سنة ١١٠٧ م سوى بعض الترجيحات والاستنتاجات (٣).

---

(١) ر. سي. سميل، الحروب الصليبية ص ٢١٨

(٢) اسم إله فينيقي.

(٣) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية الجزء العاشر ١٩٧٥ م ص ٧٣.

أول تدوين لتاريخ القلعة ما ذكره المؤرخ وليم الصوري[1] الذي عاصر الحروب الصليبية وشهدها بنفسه وسجل وقائعها. فقد ذكر أن تلك القلعة شيدها سنة ١١٠٧ م هوغ دي سان أومر «Hogh de Saint omer» حاكم طبريا وكان مقر حكومته في طبريا.

ففي ذلك الوقت كانت صيدا وبيروت محتلة من الإفرنج وبقيت صور وحدها صامدة وكان هذا الزعيم مصمماً على انتزاع صور فبنى القلعة في تبنين لتكون معقلاً يرتكز عليه في شن هجماته على صور وناحيتها وكان معتاداً غزو مدينة صور ولم تكن قد خضعت بعد لسيطرة الإفرنج. فاختار هذا المكان لبروزه وعلوه وإشرافه على ما حوله من سهول وأباطح وآكام. في وسطه بقعة زراعية تكثر فيها الكروم والآثار والغابات[2]. وكان لا بد من إطلاق اسم على هذا الحصن الجديد فسماه بابنه طورون «Toron» وبهذا عرف في المؤلفات الأوروبية وعلى السنة الأوروبيين.

ثم علا شأنه وصار مركزاً من أعظم المراكز الإدارية والعسكرية حتى أطلق اسمه على الأسرة التي حكمته ومنها «هونفروي دي طورون» الذي أصبح رئيساً لديوان الملك بلدوين الثالث سنة

---

(١) مؤرخ الحملات الصليبية ورئيس أساقفة صور ويقال إنه هو الذي دعا إلى الحملة الصليبية الثالثة بعد أن استولى صلاح الدين على أورشليم. ولد في أورشليم نحو سنة ١١٣٠ م ومات ١١٨٣ م وقيل ١١٩٣ م. لويس لورتة، مشاهدات في لبنان، تعريب كرم البستاني.

(٢) إدوارد روبنصون، يوميات في لبنان تعريب أسد شيخاني ص ٢١.

١١٥٤ م[١]. وكانت إمارة تبنين تضم إلى جانب إقطاعها الخاص إقطاع هونين ومارون وقلعة صيب وبانياس.

أما المؤرخون العرب فلم يعرفوا المكان الجديد إلا باسم تبنين. ولم يدر الاسم الجديد على ألسنتهم لا في ذاك العصر ولا فيما بعد من العصور. فالذين عاصروا الحروب الصليبية منهم والذين تأخروا عنها لم يذكروا إلا تبنين سواء ذلك في الشعر أو النثر. على أنه ليس لدينا كما يقول السيد حسن الأمين ما يمكن أن نستدل به على من ذكر هذا الاسم قبل الحروب الصليبية في الكتب العربية ولكن سريانه على أقلام الكتاب والمؤرخين والرحالين يدل على قدمه وعراقته. وأقدم ما لدينا من ذلك هو ما سجله المؤرخون الذين عاصروا تلك الحروب كصاحب الفتح القدسي[٢] وما ذكره بعض الرحالين كابن جبير وما ردده بعض الشعراء كابن سناء الملك وأبو الحكم الأندلسي وغير هؤلاء. علو أرض الحصن عن البحر ستمائة وأربعة عشر متراً وهو كناية عن هضبة تؤلف شبه دائرة، على أقصاها الغربي بناية عربية تحيط بها بساتين تنهض فيها سروات باسقة[٣]. ولقد تعاقب على تولي إمارة تبنين التي كانت جزءاً من إمارة الجليل بعد استقلالها عقب وفاة هيو ١١٠٦ م انفروا الأول (توفي سنة ١١٣٦ م) وانفروا الثاني (١١٣٦ م - ١١٧٩ م). وانفروا الثالث الذي لم يحكم كثيراً. وانفروا الرابع (١١٧٣ م - ١١٨٥ م)[٤].

(١) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية سنة ١٩٧٥ م ص ٧٣.
(٢) الأصفهاني.
(٣) لويس لورتة، تعريب كرم البستاني مشاهدات في لبنان ص ١٨٣.
(٤) راجع R. Grousset Histoires des croisades tome II p. 667 - 691.

ج ـ مم يتألف هذا الحصن في الوقت الحاضر؟

صباح الأحد الواقع في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩٧٨ قمت بزيارة إلى قلعة تبنين وتجولت بداخلها وشاهدت عن قرب الآثار التي ما زالت متبقية رغم مرور تسعة قرون على إنشائها وسجلت الملاحظات التالية:

١ ـ إن القسم الأكبر منها في طور الانحلال والتداعي.

٢ ـ بالقرب من المدخل برج لا زالت قناطره قائمة وعلى مسافة خمسة عشر متراً باتجاه الشرق برج كبير «يعتقد أنه كان لسكن الحرس» يتألف من ثلاثة أقسام ما زالت أعمدتها وسقفها قائمة وقد بنيت قواعدها من حجارة ضخمة طول الواحد بين متر ومتر ونصف وعرضه ثلاثة أرباع المتر وضخامة هذه الحجارة تستدل منها أنه كان لهذا البرج أهمية تختلف عن غيره لأنه حامي القلعة عند مدخلها وحجارة الحائط منحوتة نحتاً ناعماً على الأطراف وخشنة أو بارزة في الوسط وهي تختلف عن باقي حجارة القلعة.

ولقد شاهدت أيضاً عدداً من الأبراج المتهدمة إلى أن وصلت إلى الجهة الغربية حيث جناح كبير مشرف على بلدة السلطانية ما زال قائماً ومتماسكاً وله ثغرة لا يمكنك الوقوف أمامها لما تتعرض له من هواء وكأنك على ارتفاع يفوق الـ«١٥٠٠متر» يعرفها أهل تبنين بـ «طاقة الهواء» وتركت هذا الجناح لأقف أمام سلسلة من الأبراج الصغيرة المتهدمة والتي تتحكم بمدخل القلعة وهي متقاربة مشرفة على الأودية المحيطة بتبنين ويمكن مشاهدة البحر والسلسلة اتجاهها الشمال الغربي.

.د ـ مم كان يتألف في القرن التاسع عشر؟

أما إدوارد روبنصون[1] الذي زار القلعة في القرن التاسع عشر فقد أعطى وصفاً لما شاهده آنذاك من آثار لهذا الحصن الصليبي قائلاً: «وفي الوقت المتفق عليه رافقنا أشخاص عديدون إلى القلعة في الجنوب الغربي من الأكمة الواقع عليها الحصن مرتقى منحدر يؤدي إلى المدخل، جدران الحصن الحالية أكثرها مرمم حديثاً ولم يبق من البناء القديم سوى الرتاج القوطي الفخم والممرات الداخلية المعقودة فوق هذه الممرات والرتاج على ارتفاع أكثر من الجدران بنت عائلة علي الصغير وهي إحدى العيال المتزعمة في المتاولة مسكناً لها تسكنه مع أتباعها. تقدمونا إلى البيت ثم إلى غرفة استقبال العائلة فإذا بها تستغرق سعة البيت كله. وتشرف من موقعها المرتفع على منظر فخم. للغرفة نافذة بارزة أو شرفة تطل على الجهة الجنوبية الغربية فتشرف على قرية تبنين والريف حولها. . .

في القرن الثالث عشر جردت القلعة من وسائل الدفاع ويظهر أنها لم تسترجع مركزها القوي ومناعتها. ولربما أعيد بناء الجدران في أزمنة متباينة ولكنها الآن في طور الانحلال لأنها متداعية وعلى وشك السقوط في أمكنة كثيرة منها[2].

شيد الصليبيون هذا الحصن في هذه البقعة على أسس حصن قديم مبني قبل عهدهم بوقت طويل. وهذه الأسس القديمة ظاهرة

(١) إدوارد روبنصون، تعريب أسد شيخاني يوميات في لبنان ص ١٦٤.
(٢) نفس المرجع السابق.

في بعض المواقع في السور خلوجاً وتشتمل على حجارة كالتي في قلعة الشقيف ولكنها غير منحرفة الزوايا تماماً بل منحوتة نحتاً ناعماً على الأطراف وخشنة أو بارزة في الوسط. يحدونا هذا القول ما رأيناه من هذه الحجارة مبنياً في الداخل في أماكن متفرقة وفي أوقات مختلفة فنرى منها حجراً واحداً أو حجرين أو أكثر في غيره[1].

يضم السور مساحة مربعة تقريباً تنيف على فدان «آكر» من الأرض أي ٤٣٦٥٠ قدماً مربعاً أو ٤٨٤٠ يرداً مربعاً[2].

ويظهر أن هذه البقعة الفسيحة كانت قبلاً تزدحم بالمساكن وغيرها من الأبنية الحجرية ولكنها الآن مهدمة ومنشورة هنا وهناك أطلالاً بالية متراكمة وليس من شيء قائم ضمن السور وفي الوقت الحاضر[3] سوى البيت الذي يقطنه المشايخ أو أتباعها. وقيل لنا أن الشيخ الحاكم يتقاضى سبعماية وخمسين قرشاً راتباً شهرياً بوصفه حاكم المقاطعة ويدفع لكل من الكتبة الثلاثة ثلاثمائة قرش راتباً شهرياً ويدفع لوكيل أملاكه ألفاً وخمسمائة قرش سنوياً وطعامه.

لا يوجد ملك مطلق لأن الأرض ملك للحكومة تؤجرها للسكان: أما الضرائب أو أجرة الأملاك فتقدر على «الكونة» أي ما يعمله ثوران «مكدونان» في اليوم.

أما فيما يتعلق بالبيت الذي أشار إليه روبنصون «بيت الشيخ

---

(١) نفس المرجع السابق.
(٢) المعرّب أسد شيخاني.
(٣) المقصود زمن وصول روبنصون إلى القلعة.

الحاكم» فلقد لحق بما سبقه من أبنية داخل السور وأصبح أطلالاً ما زالت آثاره ظاهرة.

كان بناء القلعة شيئاً فاضلاً في تاريخ تبنين السياسي والإداري لأن موقعها المتوسط في البلاد وقربها من المراكز العسكرية والمدنية الكبرى وأهمها صور أن ذلك جعل لتبنين شأناً ذي شأن في مجرى أحداث ذلك العصر فكان يعهد بالحكم فيها لكبار الرجال وبعضهم يلقب بالملك، وظل الطرفان العرب والفرنج يتنازعانها ويعد كل منهما الفوز بها فوزاً كبيراً.

وبعد أن كانت مركز الثقل عند الإفرنج في هجماتهم على صور ومضايقتها والوثوب عليها عادت كذلك عند العرب بعد جلاء الإفرنج عنها وتحصنهم في صور. فلما تأخر احتلال الفرنج لصور بعد احتلالهم الساحل كله اتخذوا من تبنين معقلاً يهددون به صور. كذلك تأخر احتلال العرب لها بعد احتلالهم للساحل مئة وسبع سنين كان العرب خلالها وحين تكون تبنين في أيديهم يتخذون منها قاعدة هجوم على صور وإشغال حاميتها كهذا الذي جرى سنة ٥٨٥ هـ حين خرجت القوى العربية من تبنين فاصطدمت بالفرنج وهم خارجون للاحتطاب والاحتشاش محاولة استدراج فرسانهم إلى الأودية والجبال(١).

ونظراً لأهميتها فقد اعتمدها الفرنج موقعاً لتمكيس القوافل إذ

(١) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية الجزء العاشر سنة ١٩٧٥ ص ٧٤.

يقول ابن جبير[1] في رحلته التي ابتدأت سنة ٥٧٨ هـ أي ١١٨٢ م وانتهت سنة ٥٨١ هـ أي ١١٨٥ م: «... وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القوافل وصاحبته تعرف بالملكة هي أم الملك صاحب عكا فكان مبيتنا أسفل الحصن «في الخان الذي ينسب إليه سهل الخان».

هـ - صلاح الدين يستولي على تبنين:

وفي رواية الشيخ سليمان ظاهر[2] «إنه بعد أن انتصر صلاح الدين في موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ سيّر ابن أخيه تقي الدين إلى تبنين فلما وصلها نازلها وأقام عليها فرأى حصارها لا يتم إلا بوصول عمه صلاح الدين فأرسل يعلمه الحال ويحثه على الوصول إليه فرحل ثامن جمادى الأولى ونزل عليها حادي عشر فحاصرها وضايقها وقاتلها بالزحف وهي من القلاع المنيعة فلما ضاق عليهم الأمر واشتد الحصار أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل وبقي الفزع كذلك خمسة أيام ثم أرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم وبقيت في يده إلى أن توفي سنة ٥٨٩ هـ فأصبحت في يد ولده الأفضل إلى سنة ٥٩٤ هـ وهي السنة التي ملك فيها عليه مدينة دمشق وأعمالها عمه العادل أبو بكر أيوب.

ولقد استطاع الفرنج أن يتقدموا إلى تبنين عام ٥٩٤ هـ وأن يحاصروها حصاراً شديداً حتى كادت أن تستسلم لهم بل أرسلت وفداً لتحديد شروط الاستسلام ولكن الوفد كان حازماً فأدرك أن

---

(١) رحلة ابن جبير، دار صادر - دار بيروت ص ٢٧٤.

(٢) مجلة العرفان ص ٤٣٧ م ٨.

الاستسلام كان في غير محله وأنه يمكن الصمود حتى وصول النجدات فتعلل المندوبون بمراجعة من في القلعة ببعض الشروط ثم لم يعودوا وصمدت تبنين حتى جاءت النجدات من مصر بقيادة العزيز فارتد الفرنج إلى صور[1]وهكذا فإن ضرورة الاحتفاظ بتبنين حملت القيادة الإسلامية على استدعاء الجيوش إليها من مصر ويقول المؤرخون: إن العادل لم يكتف بطلب النجدة بل أصر على ابن أخيه أن يحضر بنفسه قائلاً له: «إن حضرت وإلا فلا يمكن حفظ هذا الثغر».

و ـ قلعة تبنين بين التدمير والتعمير:

ولكن الفرنج عادوا بعد ذلك فاحتلوها لا حرباً بل بخيانة الأيوبيين حين سلم الصالح إسماعيل الأيوبي صاحب دمشق للإفرنج كلا من صيدا وهونين وتبنين والشقيف ليساعدوه على ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر وذلك سنة ٦٣٨ هـ ولكن قلعة تبنين لم تتحرر نهائياً إلا في عهد الظاهر بيبرس حين زحف من مصر وظل يتقدم حتى حرر فيها تبنين سنة ٦٦٤ هـ ١٢٦٦ م[2]. ولقد تعاقبت على حصن تبنين أيدي التعمير والتدمير وأصبحت خراباً في عهد الشيخ ناصيف النصار شيخ مشايخ جبل عامل في المائة الحادية عشرة هـ فعمرها كما كانت عليه في هذا العصر[3] كما دك الجزار

---

(١) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية المجلد العاشر ١٩٧٥

(٢) المصدر السابق، ص ٧٥.

(٣) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٢٥٢.

معالمها في مطلع القرن التاسع عشر حتى ألصقها بالدفعاء[1]. ثم زاد في تعميرها حمد البك بن أبي حمد هذا ثم زاد في بنائها علي بك الأسعد لما ولي بعد حمد البك وكان معه كالوزير محمد بك ابن أسعد الخليل فبنى في أعاليها دوراً شاهقة واواوين لطيفة بديعة على يد المعمار الحاج حميدي الصفدي باني جامع بنت جبيل ثم آل أمرها إلى الخراب ولم يبق لها أثر على عادة الدنيا[2] ونقل مصطفى بك القنواتي الدمشقي قائمقام صور جملة من أعمدة الرخام التي فيها إلى سراي الحكومة في صور وبنى علي بك الأسعد بها حماماً ما زال عامراً[3] حتى اليوم وكان فيها جامع معظم لم يعرف من بناه إن كان ناصيف أو غيره. كما بنى علي بك فيها دوراً جميلة من جهة الشمال لحسين بك ابن سلمان بك حين جاءه مغاضباً لأخيه تامر بك حاكم بنت جبيل. كما يوجد في القلعة مكان مطبخ علي بك وبقي علي بك في هذه القلعة حتى سنة ١٢٨٢ هـ ثم قبض عليه وأرسل إلى دمشق فتوفي فيها. ثم عينت الحكومة العثمانية مديراً واستمرت كذلك إلى أول الاحتلال بعد الحرب العظمى الأولى فخرب ما فيها من البناء ولم يبق فيها سوى العقود والأبراج التي لا يمكن تخريبها وأخذت الناس أنقاضها من حجارة وغيرها وعادت إلى شبه حالتها الأولى من الخراب وهجرت فسبحان من لا يدوم إلا ملكه[4].

---

(١) لويس لورتة، تعريب كرم البستاني مشاهدات في لبنان ج ١ ص ١٨٤
(٢) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٢٥٢.
(٣) لم يعد عامراً الآن.
(٤) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

ز ـ القرى التابعة لإمارة تبنين:

ولقد أورد Rey[1] أسماء بعض القرى التي كانت تابعة لإقطاع مارون من إمارة تبنين والتي ما زالت قائمة حتى اليوم.

١ ـ Le Maron (مارون) وهي قرية في قضاء بنت جبيل إلى الجهة الجنوبية منها.

٢ ـ Quabriquesm (قبريخا) بلدة في قضاء مرجعيون إلى الجهة الشرقية الشمالية من بلدة تبنين.

٣ ـ Belide (بليدة) بلدة في قضاء مرجعيون تقع بين بلدتي عيترون وميس الجبل.

٤ ـ Cades (قدس) بلدة تحت الاحتلال الإسرائيلي متاخمة لبلدة بليذة.

٥ ـ Mess (ميس الجبل) بلدة في قضاء مرجعيون تقع بين بلدتي بليدا وحولا.

٦ ـ Haris (حاريص) بلدة في قضاء بنت جبيل متاخمة لبلدة تبنين من الجهة الغربية.

ولقد أورد Rey اسمان لقريتين كانتا تابعتين أيضاً لهذا الإقطاع من الإمارة إلا أنه لم نستطع التعرف على مكان وجودهما حالياً وهما:

1 - Le deux

2 - Magaras.

(١) Rey. E. Les colonies F. de Syries en XII et XIII siécles p. 488.

ح ـ زوار القلعة من التاريخيين:

ومن الزوار التاريخيين لقلعة تبنين صلاح الدين الأيوبي وقد وصف الأصفهاني هذه الزيارة لأنه كان في ركاب صلاح الدين في كتابه الفتح القدسي فقال: «سار على طريق جبل عامل ونزل وصحبه في ضيعة يقال لها الجش وسرنا منها وخيمنا على مرج تبنين «المعروف اليوم بسهل الخان» وفي الصباح تفقد القلعة ووصى الوالي بعمارتها ثم رحلنا بكرة السبت».

ولم يعرف من الرحالين العرب من مرّ بتبنين بعد ابن جبير. أما غير العرب فقد ذكرها كل من بنيامن دي توديلة و«نزوكاردوس» وبعدهما لم يرد لها ذكر حتى سنة ١٦٧٤ م حين مرّ بها «نو» فذكرها عرضاً وقد زارها الدكتور إدوارد روبنصون الأمريكي سنة ١٨٣٨م، واخر زوارها الدكتور لوريس لورته عميد معهد الطب في جامعة ليون في فرنسا عام ١٨٨٠م والذي نقل إلينا بأنها أشقى القرى التي زارها وسكانها مسيحيون وقد شكوا إلينا بمرارة ما يقاسونه من الإدارة العثمانية. وهناك طريق مبلطة ببلاطات واسعة تؤلف درجاً فخماً سهل المدخل على الفرسان يقود إلى الحصن منتهياً إلى رتاج جميل يعلوه أسدان واقفان تبين إليّ أنهما من صنع عربي(١).

---

(١) لويس لورتة، تعريب كرم البستاني، مشاهدات في لبنان ص ١٨٣.

١ - قلعة دوبِي

أ - موقعها:

تقع في المنطقة الواقعة بين بلدتي حولا وشقراء على مرتفع يحيط بها من جهاتها الثلاث عدا الجهة الجنوبية.

ب - اسمها:

اسمها محرّف قليلاً عن دوبو أو دوبي من الأسماء الأعلام الشخصية في اللغة الفرنسية.

بناؤها صليبي قائم على أنقاض بناء روماني بدليل ما يوجد حواليها من المدافن الشبيهة بالمدافن الرومانية.

لم يذكرها ابن جبير في رحلته من هونين إلى تبنين حيث قال: «واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف بالشجر وأكثر شجره الرنّد[١] بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوي تلتف حافتاه ويتعلق بالسماء أعلاه يعرف بالأسطبل لو ولجته العساكر لغابت فيه لا منجي ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه.. المهبط إليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان فعجبنا من أمر ذلك المكان»[٢].

وربما لم ير ابن جبير هذا الحصن لأن الوادي الذي مرّ به بعيد عن المكان الذي يوجد عليه الحصن فهو في أقصى الشمال ولكثرة الجبال المحيطة بوادي الأسطبل.

---

(١) الرنّد: شجر صغير طيب الرائحة أزهاره بيض صغار.

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧٤.

قلعة دوبي ويظهر في الصورة آثار القصف الإسرائيلي   ٣ أيار سنة ١٩٧٠

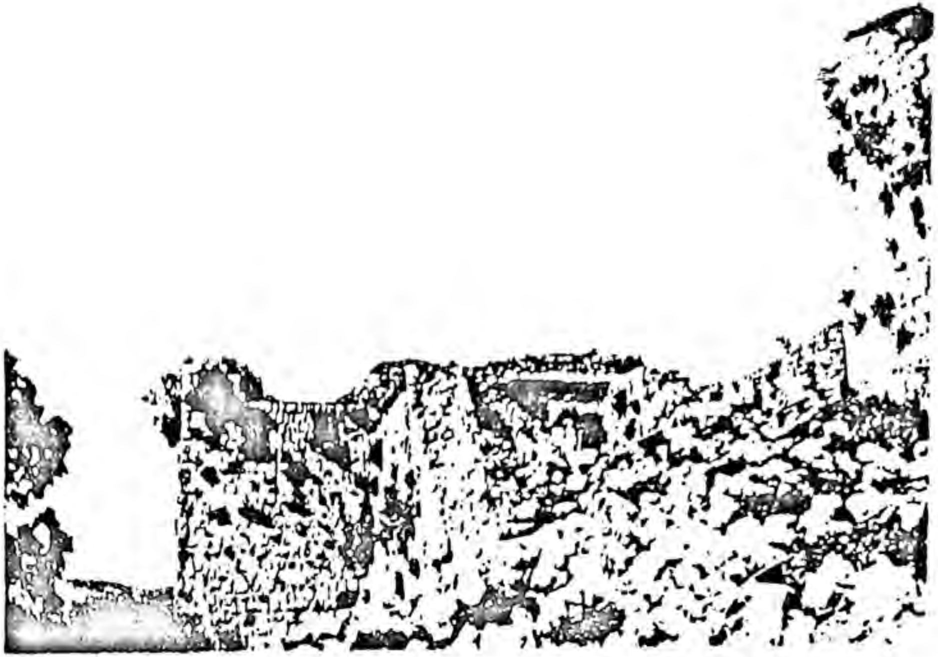

صورة لسقف قلعة دوبي ويظهر القسم المتبقي من السقف.

صباح الخميس الواقع في ٢٦ كانون الثاني ١٩٧٨ قمت بزيارة هذا الحصن برفقة عدد من أصدقائي وبالكاد استطعنا الوصول إليه. الظروف الأمنية لا تسمح بالبقاء مدة طويلة داخل هذا الحصن فالعدو الإسرائيلي يراقب كل تحرك في المنطقة المجاورة إليه.

ج - ممَّ يتألف هذا الحصن؟

القسم الجنوبي من هذا الحصن هدمه العدو الإسرائيلي بقصف الطيران، آثار القذائف والصواريخ ما زالت ظاهرة، لكل من يصل إلى هذا الحصن. في الجهة الغربية وعلى بعد ثلاثة أمتار صاروخ أطلق من إحدى الطائرات ولم ينفجر.

طول الحصن من الشمال إلى الجنوب ١١٢ متراً وعرضه سبعون متراً يستدل من رؤية هذا الحصن أنه كان يحتوي على ثلاث طبقات، الطبقة الثالثة متهدمة والثانية نصفها متهدم بالإضافة إلى قسم كبير من الجهة الجنوبية. في الطبقتين الأولى والثانية ما يقارب من خمس وعشرين غرفة وحجرة. في داخل الحصن وفي خارجه أيضاً عدة آبار وصهاريج وفي الطبقة الثانية بئر وفي خارجها صهريج منقور في الصخر الأصم ولقد ذكر ذلك أيضاً العلاّمة السيد محسن الأمين في كتابه «خطط جبل عامل ص٢٣٢». القسم الشرقي سلسلة من الأبراج الصغيرة، لها ربض من غربها يسمى الزنار. إن بناء هذا الحصن وفي هذا المكان كان يساعد الصليبيين في كشف كل التحركات المعادية لهم في المناطق الداخلية وهذا الحصن مضافاً إليه الحصنان الآخران هونين وتبنين كانوا يشكلون سداً منيعاً يحميهم من هجوم الأيوبيين وفيما بعد المماليك.

جدد هذه القلعة آل علي الصغير الذين كانوا يسكنون في تبنين وهونين في عهد ناصيف النصار وسكنوها وبناؤهم فيها ظاهر وجدّدها أيضا ظاهر بن نصار النصار[1] ولما أتمّ بناءها صعد إلى أعلاها ليشرف عليها فسقط إلى الأرض ومات سنة ١١٦٣ هـ[2].

وفيها اختبأ الأمير يونس المعني بولديه ملحم وحمدان من وجه الكجك أحمد باشا والي صيدا لما زحف بعساكره لمحاربة أخيه فخر الدين وبعض عقودها مهدم من قممها والجوانب باقية وهذا ما جعل السيد محسن الأمين[3] يستنتج أنها مهدمة عمداً لأن من عادة الصليبيين والمماليك فيما بعد تهديم القلاع والحصون والمعاقل خوفاً من استيلاء العدو عليها. وهذا ما حدث كثيراً.

ويقوم إلى الشمال منها وفي الوادي القريب طريق تصل بلدتي حولا وشقراء عبر وادي السلوقي انتهى العمل فيها منذ أربعة أشهر تسلكها السيارات القادمة من حولا إلى شقراء وبالعكس. وهذه الطريق «في الظروف الأمنية الهادئة» ستبرز دور القلعة وتجعلها مقصد السياح وكل من أراد معرفة تاريخ جبل عامل ودوره في التاريخ على مرّ العصور. وقد تم تزفيتها على حساب المجلس السياسي المركزي للحركة الوطنية وبلغت تكاليفها ما يزيد عن أربعمائة ألف ليرة لبنانية.. وهي أول طريق تشق الحدود إلى العمق مباشرة وهنا يبرز دورها الخطر فيما لو تحرك العدو الصهيوني

---

(١) نصار النصار هو ابن أخ ناصيف النصار من آل علي الصغير.

(٢) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٢٨١.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٢٨١.

لاجتياح منطقة جبل عامل، وقيمة هذه القلعة في اختلافها عن غيرها في كونها قائمة رغم مرور ما يقارب التسعة قرون على إنشائها.

٣ ـ قلعة الشقيف[١] أرنون

أ ـ موقعها:

هي على بعد خمسة كيلومترات تقريباً من النبطية في الشرق الجنوبي منها وعلى بعد عشرين دقيقة من قرية أرنون المسماة باسمها قائمة على أعلى مرتفع من مرتفعات الشقيف يتمثل أمامها أبدع مناظر البلاد التي تشرف عليها. وتترصد طرق الغزاة الطامعين في الاستيلاء على البلاد الحامية لها بما فيها من المنعة والحصانة وتطل على عورات العدو الإسرائيلي وتنكشف لها قلاع هونين وتبنين ودوبية وبرج قلوية وشقيف تيرون وبانياس من الجهات الأربع ومرتفعات لبنان وجبل عامل وجبل حرمون وسفوحه وأعالي الجولان وهضاب صفد ووادي الأردن وسواحل فينيقية الشمالية حتى بيروت والجنوبية حتى عكا وبالتالي فهي تنكشف إلى كل ما ينكشف لها[٢].

أما في دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ص ٢٥٤ فتحدد كما يلي: واقعة على تل مرتفع يصعد إليها من قرية أرنون[٣] ولها طريق آخر

(١) إن لفظة الشقيف سريانية ومعناها الصخر الشاهق وعرنون سريانية أيضاً ومعناها الساقية الشديدة الجريان راجع فريحة أسماء المدن ص ٦ حيث يثبتها بالهمزة لا بالعين.

(٢) سليمان ضاهر، قلعة الشقيف.

(٣) أرنون قرية في ناحية الشقيف التابعة لقضاء النبطية تبعد نحو ٧ كلم عن =

من الجهة الجنوبية أسهل من الطريق المذكور وبين القرية وحضيض التل الذي عليه القلعة بقعة عرضها نحو عشرة دقائق وفي الطريق من القرية إلى القلعة بركة كبيرة متينة البناء واقعة على سفح التل وبالقرب منها آثار قديمة يحيط بها سور وبرجان مستديران إلى الجانب الغربي منها فسحة من الأرض مستوية يظن أنها كانت ميداناً للعساكر وهي ذات مناظر جميلة إلا أنها منفردة. والجانب الشرقي من ذلك التل يشرف على نهر الليطاني الجاري في وادٍ ضيق عند حضيضه وهو قائم على خط يكاد يكون مستقيماً وارتفاعه عن الليطاني ١٥٠٠ قدم وأما ارتفاع التل عن قرية أرنون من الجهة الأخرى تكاد لا تبلغ ٥٠٠ قدم. وأما ارتفاع قمة التل عن سطح البحر فهو ٢٢٠٥ أقدام[٣] وهو أعلى من جميع الأراضي والتلال المجاورة له ما عدا جبل الريحان «١٣٤٠ م» وجبل هونين.

وفي معجم البلدان لياقوت الحموي، شقيف أرنون بفتح أوله وكسر ثانية ثم باء مثناة من تحت، وفاء، والشقيف كالكهف أضيف إلى أرنون «الاسم موجود في التوراة» اسم رجل إما رومي وإما إفرنجي وهو قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل[١] وبالتالي فإن موقع قلعة الشقيف أعرف من أن يعرف ولم يهمل ذكره كل من كتب في حوادث القرون الوسطى وما يليها حتى اليوم.

= مركز القضاء، في مصدر ألماني ارتفاعها ٦٧٢ متراً وكذلك جاء قياس ارتفاعها في كتاب السائح الفرنسي كيران، أما فيليب حتي في كتابه لبنان في التاريخ فيقول أن الارتفاع هو ٢١٩٩ قدماً.

(١) ياقوت. معجم البلدان ج ٣ ص ٣٥٦.

ب ـ أسماؤها:

إذا كانت كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى فلا حرم أن تعددت أسماء هذه القلعة الجميلة التاريخية فهي تعرف عند مؤرخي العرب بحصن أرنون وشقيف أرنـون والشقيف الكبير، وقلعـة الشقيف، والشقيف مجردة عن المضاف إليه وإذا أطلق اسم الشقيف في كلمات المؤرخين يتبادر الذهن إليها عند الإطـلاق ويسميها الإفرنج بلفور «Belfort» أو بوفور «Beaufort» ومعناها الحصن الجميل.

ج ـ بناتها وتاريخ بنائها:

لقد تلاعبت أيدي الفاتحين والغزاة في هذه القلعة بين هدم وتعمير ومشت فيها تبعاً للخطط الحربية فما كان يطرأ عليها من متجددات بناه الغالب المنتصر الظافر كان يكون منطبقاً على ذوقه العمراني فأعيد المتهدم منها مرة من الصليبيين ومرة أخرى من المسلمين وتارةً من الحكام الإقطاعيين من أمراء سورية ولبنان وجبل عامل. مؤسسـها الأول مجهول[1] وأما ما بناه الصليبيون فيختلف في شكله عما بناه غيرهم لهذا يصعب تمييزه عنه فلا ريب في أن بناءها كان قبل الصليبيين بمدة مديدة[2]، إلا أن ذكرها لم يرد قبل القرن الثاني عشر للميلاد فقد ذكرها مؤرخو الحروب الصليبية الفرنسيون باسم بلفور أوبوفورت إلا أنهم لم يتعرضوا لذكر تاريخ بنائها. ويقول الشيخ سليمان ضاهر[3] «ولا يعلم بالتحقيق الذين بنوها

(١) كيران الفرنساوي.
(٢) سليمان ضاهر، قلعة الشقيف ص ٣٢.
(٣) نفس المرجع السابق.

أنصارى هم أم مسلمون والمرجح أنهم نصارى لأنهم بنوا غيرها من القلاع المجاورة كقلعة تبنين وصفد وغيرهما».

يقول وليم الصوري في عام ١١٧٩ م «إنها قلعة للإفرنج لجأ إليها الكثيرون من الفرسان وفلول الجيش بعد الاندحار الجزئي الذي مني به المسيحيون في المعركة التي دارت رحاها مع صلاح الدين قرب بانياس[١]. ورجح المقتطف أن بناتها الأولين من الرومان بعد الميلاد، وزعم البعض الآخر كما يقول شاكر الخوري في كتابه المسرات ، إنها من بناء الصليبين وإن فيها بناءً فينيقياً قديماً ولكنه قال إن تسميتها بقلعة شقيف أرنون مأخوذ من اسم قرية بجانبها وإن معنى أرنون الجرذون (وقد سبق ما يؤيد سبب التسمية). أما الأب لويس شيخو فقد ذكر في تعليقاته على تاريخ بيروت لصالح بن يحيى: إن أرنون تصحيح اسم أرنولد وهو صاحب صيدا وكانت القلعة تابعة لمنطقة حكمه وهو المسمى عند مؤرخي العرب بإرناط وعند بعضهم إسم إرناظ وهذا أقرب لإسمه الفرنجي، وإرناط إسم أميرين من الفرنج كانا في سوريا في أيام الصليبين وكان أحدهما صاحب إنطاكية والكرك ويسميه الفرنج رينوارنلدد وشاتيليون والآخر صاحب صيدا والشقيف[٢]. أما الدكتور فيليب حتي فيذكر[٣] بأن ملك القدس[٤] فولك «Folk» هو

(١) إدوارد روبنصون، يوميات في لبنان تعريب أسد شيخاني ص ٢٤.
(٢) سليمان ضاهر، قلعة الشقيف ص ٣٥.
(٣) فيليب حتي، تاريخ لبنان ص ٣٥٨.
(٤) فولك: صهر بولدوين الثاني وخليفته.مدة حكمه من (١١٣١ م - ١١٤٢ م) مات بسبب سقوطه عن فرسه.

الذي بنى قلعة الشقيف عام ١١٣٥ م على موقع استراتيجي كان الرومان قد أقاموا عليه من قبل حصناً.

د ـ القلعة بين التدمير والتعمير:

إن قلعة الشقيف بما اختصت به من موقعها الجغرافي الطبيعي الحصين المشرف على أهم مرافىء البحر تترصد طريق كل طامع إليها من البر والبحر. إن من ملك ذلك الساحل الممتد من عكا إلى بيروت جنوباً وشمالاً وما إليهما ويحاذيهما من الأعمال مضطر بحكم الدفاع عنها إلى امتلاك تلك البقعة المنيعة وتحصينها وشحنها بالسلاح والرجال وآلات القتال رداً لعادية غزاة تلك الأعمال.

وهذه القلعة لم تكن لتستسلم للطامعين استسلام الصاغر الذليل فلا غرو إن تداولت على الأعمال التي تشرف عليها دول شتى وتطاحنت عليها أمم وشعوب فلقد تعرض لهذه القلعة بذكر، مؤرخو الحروب الصليبية ومنهم وليم الصوري إذ ذكرها قبل ذكر مؤرخي العرب لها بعشر سنين قائلاً: «بعد أن انهزم المسيحيون في تلك السنة من وجه صلاح الدين بالقرب من بانياس التجأ كثير من الأشراف والعسكر إلى قلعة بلفورت المجاورة. ولقد ذكرها مؤرخو العرب لأول مرة عندما حاصرها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٥ هـ ١١٨٩ م[١].

أما بعض مؤرخي الفرنج «كيران» فقد رجع في ذُكرها إلى أبعد من هذا الزمن بكثير حيث قال إنها وقعت في قبضة فولك ملك القدس عام ١١٣٩ م و ٥٣٤ هـ.

---

(١) سليمان ضاهر، قلعة الشقيف ص ٣٧.

ويقول الشيخ سليمان ضاهر: إن هذا لا ينفي أن تكون قائمة قبل ذلك التاريخ ولا يبعد أن تكون قد ذكرت في جملة الحصون الساحلية التي أهمل المؤرخون ذكرها ووقعت في قبضة الصليبين ويتابع: «نكاد نقطع أنها كانت قائمة قبل الحملة الصليبية الأولى وأنهم امتلكوها من الساحل قبل اجتماع كلمة المسلمين على دفع أتي غرواتهم ولا نعني بالقطع في قيامها في ذلك العهد أنها كانت عامرة عمراناً أستغني به عن الترميم وزيادة التحصين فلا جرم أن أيدي الصليبين امتدت إليها بعد أن ملكوها بإعادة ما تهدم منها وتجديد دائرها وقام لهم فيها من البناء الجديد ما يتميز عن بنائها الروماني القديم وعن بناء العرب لأن الجهة الغربية كلها مع الزاوية الشمالية والجنوبية ومعظم القلعة قد بنيت قبل الصليبيين بمدة مستطيلة ومعظم القلعة من القسم المذكور وليس من بناء القرون الوسطى إلا آثار قليلة[1].

والظاهر أن الصليبين بنوا أكثر الجهة الشرقية منها ويرى في الوسط كنيسة لاتينية ذات سقف مؤلف من قناطر متقاطعة وبابها صغير يدخل منه إلى الدار الداخلية وهناك آثار أبنية يظن أنها كانت اصطبلات أقامهاالصليبيون، وبالقرب من الزاوية الشرقية آثار أبنية متصلة بأعلى القلعة كان يدخل منها إليها. تبلغ واجهة القلعة ١٣٠ يرداً طولاً و ٣٣ يرداً عرضاً وترتفع جدرانها إلى علو يتراوح بين ٥٨ إلى ٧٨ قدماً من الخندق المحيط بها من جهتي الجنوب والغرب. وهذا الخندق محفور في الصخر وعمقه يتراوح بين ٤٨ و ١١٥ قدماً.

(١) سليمان ضاهر، قلعة الشقيف.

وفي قلب الخندق حفرت غرف آبار لحفظ الماء[1].

إن هذه القلعة المنيعة المحصنة تحصيناً طبيعياً وصناعياً مع ما حرفه الصليبيون يوم استحواذهم عليها من المجهودات زاد في منعتها وتوسيع رقعتها وجعلها في مظهر تستطيع به مقاومة كل قوة إسلامية تحاول استردادها.

كان إرناط يفرغ همه في تحصينها أثناء الهدنة التي عقدها مع صلاح الدين يوم جاءها محاصراً بجيشه الكثيف المجهز بآلات الحصار وأدوات التدمير ولم يتذرع بعقد تلك الهدنة ويتوصل إليها بدهائه ويماطل ويطاول إلا للاستزادة من التحصين وإعداد المعدات لمقاومة ذلك الفاتح العظيم الذي خشي من جيوش الصليبين ويترك الشقيف وراءه فتنقطع عنه الميرة[2].

قال العماد الأصفهاني «في الفتح القدسي» بعد أن أتى على ذكر اجتماع إرناط بصلاح الدين «. . . طلب منه إمهاله ثلاثة أشهر لتسليم القلعة فشرع إرناط في شدة حصنه وإزالة وهنه وترميم مستهدمه وتتميم مستحكمه وتوفير غلاله وتوفية رجاله وتدبير أحواله وتكثير أمواله».

هـ ـ ممَّ يتألف الحصن؟

إن ما أورده إدوارد روبنصون صفحة ١٥١ «يوميات في لبنان»[3] من وصف حي يجعلنا ندرك أهمية هذا الحصن قال: «نحن الآن بين

(١) فيليب حتي، تاريخ لبنان ص ٣٦٠.

(٢) سليمان ضاهر، قلعة الشقيف.

(٣) تعريب أسد شيخاني.

خرائب الحصن القديم بلفور الصليبين. المشهد حولنا فسيح ومتمم. أما السلسلة المنفردة الواقع عليها الحصن فجرداء تماماً وهي أعلى من كل السلاسل المجاورة والريف المتاخم ما عدا جبل الريحان. ويبرز الحصن معلماً واضحاً كل الوضوح ويرى عن بعد شاسع من سائر الجهات.

في الشرق تبرز مرتفعات حرمون المغطاة بالثلوج. وبين الشرق والشمال الشرقي ... تطل قمة مغمورة بالثلج وهي أعلى قمة... شرقي الزبداني. في الشمال الشرقي تقع العين على سهل البقاع وهو الوادي الكبير بين لبنان ولبنان الشرقي وبين الشمال الشرقي والشمال شعاب لبنان الجنوبية وجبل الريحان تنحدر متهاوية متساقطة كأنها أجرام مظلمة ثقيلة تفصل بين الليطاني ووادي الجرمق.. ترتمي بين الجنوب والجنوب الشرقي سلسلة جبال صخرية متسعة أقل ارتفاعاً...(1).

في الشمال وادي الجرمق.. ومن الغرب سلسلة أقل ارتفاعاً منه من يدخل إلى الحصن من المدخل الرئيسي من الجنوب ماذا يرى؟

الجزء الرئيسي من القلعة يقوم على نتوء صخري يرتفع بها بضعة أقدام فوق المنطقة المحيطة بها. ولكن الهجوم، وإن كان شاقاً أمكن توجيهه من كافة الجوانب عن الشمال، على أن موقع القلعة الطبيعي من جهة الشرق انفصل بواسطة رف صخري في مستوى أوطأ، وعرضه حوالي خمسين متراً، عن حافة منحدر صخري شاهق

(1) للاطلاع على التفاصيل ص ١٥٣ يوميات في لبنان د. روبنصون، تعريب أسد شيخاني.

ينحدر حوالي ١٠٠٠ قدم إلى وادي الليطاني، وبإدخال هذا الرف ضمن منطقة القلعة حيث شكل فناءً سفلياً، تم ضمان الحماية التامة من الشرق، ويمكن مهاجمة القلعة من الغرب والجنوب، علماً أن الهجوم من الغرب يواجه بواسطة الخندق والسور الحاجز للفناء العلوي، أما الهجوم من الجنوب فيجابه بالوسائل الدفاعية الموجودة في كل من الفناء العلوي والسفلي، ووسائل الدفاع في الفناء السفلي أقل مناعة، ولكن أمكن مهاجمتها من واجهة تقل عن ٢٠ متراً، وخضعت لإشراف المنشآت الجنوبية المنيعة في الفناء العلوي، ولم يكن من المستطاع الدفاع عن قلعة الشقيف (بوفور) بواسطة سور حاجز محمي بدقة من الجانبين، فعندما يقترب الزائر منها في أيامنا من جهة الغرب، لا يرى في بادىء الأمر سوى أدلة يسيرة على وجود الأبراج، وهذا ناشىء عن الحوادث التي تعرضت لها أثناء عمليات الحروب. فالوسيلة الدفاعية الرئيسية تمثلت في السور الحاجز الذي اتبع بصورة مطابقة للأصل حافة البروز الصخري التي يقوم عليها، وثمة التواءات وزوايا في أثرها، فعلى السور الغربي المعرض للهجوم بقايا برج إفرنجي واحد فقط، وكان هذا البرج الكبير أو الحصن الكبير في القلعة، وجداره الخارجي مبني على استواء السور الحاجز، بحيث تدخل جوانبه كلية ضمن البناء ، وفي الجنوب المعرض للهجوم بنفس القدر، هناك في القلعة العلوية برجان مستديران جميلا البناء وبارزان بشكل واضح، والبرجان الإفرنجيان الوحيدان من القرن الثاني عشر اللذان يمكن تحديد هويتهما، ومكنا الحامية من مباغتة مفرزة مقتحمة بصورة جانبية هما برجان مستديران صغيران يقومان على السور الجنوبي من الفناء السفلي من القلعة.

يقول إدوارد روبنصون[1]: «هنا حوض ماء يتصل بالخندق. والخندق مقدود في الصخر الصلد على طول الجانب الغربي وطرف الحصن الجنوبي. أما باقي النواحي فلا يمكن الوصول إليها لأنها غاية في المناعة. ظاهرة السلسلة ضيقة جداً والحصن يشغل كل سعتها ويزيد. يدخل إلى الحصن من الجنوب على جسر يفتح ويقفل عند الحاجة ومنه على حرف منخفض في الشرق. ينخفض ثلاثين قدماً أو أكثر من البناء الرئيسي هنا أطلال أبنية ربما كانت اصطبلات بناها الصليبيون على دكات أو أسس سابقة كما يظهر جاثمة على صخور ناتئه أقل ارتفاعاً من أرض القلعة. بالقرب من الزاوية الشمالية الشرقية أبنية ضخمة تستند إلى أعلى الحصن. وهي مدخل الحصن الرئيسي فالقلعة إذا تتحكم بكل من تحدثه نفسه بالدنو منها. سطح المنزلق بين الحرف الأسفل والقلعة فوقه، مغطى بحجارة ملساء زلاقة كثيرة الانحدار في المكان الذي لا يكون انحداره طبيعياً وأملس زلاقاً كي يستحيل عبوره.

من يمعن النظر في القلعة لا يرى تناسباً بين أبعادها فهي طويلة ولكنها جد ضيقة نتيجة طبيعية لضيق الأرض. الجانب الشرقي من عمل الصليبين لا المنزلق المبني خارجاً هنا، في الوسط الكنيسة اللاتينية ذات السقف المصلب والباب الغوطي المؤدي إلى القاعة الداخلية...

(١) للاطلاع على التفاصيل ص ١٥٣ يوميات في لبنان د. روبنصون. تعريب أسد شيخاني.

في الجنوب الغربي برج زاوية مستدير تسنده دعامة منحدرة مستديرة وهذا مما يزيد في مناعة الحصن، إلى الشرق من هذا البرج باب صغير تعلوه قنطرة مستديرة حجارتها منحرفة الزوايا تماماً ومنحوتة نحتاً ناعماً.

الجدران متينة وصلدة وشامخة وتعلو ستين أو ثمانين قدماً فوق الخندق. الطول نحو ثمانمائة قدم وأقصى العرض ثلاثمائة قدم.

و - تاريخ القلعة:

في اليوم الأخير من نيسان ١١٨٩ م أي بعد سنتين من معركة حطين. حاصر صلاح الدين الأيوبي قلعة الشقيف فلجأ قائد الحصن «رينالد Raynald» الصيداوي إلى المراوغة لإطالة أمد الحصار. وجاء إلى معسكر صلاح الدين عارضاً عليه تسليم الحصن شرط أن يمنحه مهلة ثلاثة أشهر ليتمكن من نقل عائلته ومقتنياته من صور إلى محل أمان. فقبل السلطان شروطه ولكن بعد انقضاء المهلة اختلق شتى الأعذار لإطالتها. وفي هذه الأثناء حاصر عكا جماعة من الصليبيين القادمين حديثاً. وإذ ضاق صلاح الدين ذرعاً لمراوغة رينالد أرسله مصفداً إلى دمشق وفك الحصار عن حصن الشقيف ليتفرغ لمراقبة جيش الإفرنج ثم عاد لمحاصرته فسلم له في نيسان من السنة التالية بشرط إطلاق سراح رينالد وتسهيل إنسحاب الحامية(١). وفي ذلك يقول ابن شداد(٢): عند محاصرة صلاح الدين لقلعة الشقيف أقمنا أياماً نشرف كل يوم على الشقيف

---

(١) إدوارد روبنصون، يوميات في لبنان ص ٢٥.

(٢) ابن شداد، المحاسن اليوسفية ص ٦٩.

والعساكر الإسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد وصاحب الشقيف يرى ما يتقن معه عدم السلامة فرأى أن إصلاح حاله معه قد تعين طريقاً إلى سلامته فنزل بنفسه وما أحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه. وكان من كبائر الإفرنجية وعقلائها ويعرف بالعربية وعنده إطلاع على كل شيء من التواريخ فبلغني أنه كان عنده معلم يقرأ له ويفهمه[1].

وفي عام ١٢٤٠ م عادت قلعة الشقيف مع صفد إلى الفرنج بناءً على معاهدة مع إسماعيل سلطان دمشق ولكن الحامية رفضت تسليمها إلى الصليبين وأخيراً سلّمها إسماعيل بنفسه، وفي عام ١٢٦٠ م اشترى فرسان الهيكل صيدا وحصن بلفور (الشقيف).

وفي عام ١٢٦٨ م فاجأ بيبرس القلعة بهجوم عنيف وكان لم يزل في حوزة الهيكلين، ولكن حدث في اليوم الذي سبق أن سحب قسم من الحامية، ولم يتمكن الباقون الصمود أمام هجمات العدو، وبعد بضعة أيام من المقاومة سلم الصليبيون الحصن بمحض اختيارهم فوزع الرجال أرقاء على مرافقي بيبرس الظافر. وأرسل الأولاد والنساء إلى صور[2] وأعيد بناء الحصن وجهز بحامية وقاضٍ وأيمة للجامع[3].

ثم إن الملك الظاهر بيبرس هو أول من جعل في قلعة شقيف أرنون دار نيابة «كدمشق» ويظهر ذلك مما جاء في نسخة عقد الهدنة

---

(١) المعروف أن ابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين كان مرافقاً له.
(٢) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ص ٢٥٥.
(٣) إدوارد روبنصون، يوميات في لبنان ص ٢٦.

بينه وبين ملكة بيروت «ماركريتا» أرملة يوحنا دومنغرات في السنة التي استولى فيها على القلعة وهي سنة ٦٦٧ هـ أو من قولهم: «والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها»[١]. وفي القرن التاسع عشر أصبحت مقر الأمراء الصعبية ولها خندق عميق ويجري من شرقيها نهر الليطاني على مهوى سحيق يسمى المزحلق ولها باب صغير من جهة الشرق يسمى باب السر[٢] والعامليون يسمون الباب الصغير الذي يكون للبيت غير بابه الكبير باب السر «بكسر السين».

ولما هاجم الجزار جبل عامل كان فيها الشيخ حيدر الفارس من الأمراء الصعبية فحاصره عسكر الجزار لمدة شهرين ثم دخلها بالأمان فقتل جميع من فيها غدراً. ولقد أقدمت وزارة الأشغال العامة منذ سنوات وأصلحتها وشقت لها طريقاً في الجبل تسير عليه السيارات والعربات وتحت الجبل الذي عليه القلعة من الشمال قرية أرنون التي تنسب إليها القلعة.

٤ - شقيف تيرون[٣]

تأخر هذا الحصن كثيراً في سقوطه بيد الإفرنج، وله أهمية قصوى عسكرية فهو يقع على جبل يرتفع نحو ١١٠٠ متر عن سطح البحر بالقرب من مدينة جزين يعلو عن الطريق الموجود في أسفله نحو

(١) علي الزين، من الحوادث العاملية ص ٩٦١ عن صبح الأعشى ج ١٤ ص ٤.

(٢) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٢٤٦.

(٣) شقيف كالكهف وتيرون بكسر أوله ثم باء مثناة من تحت، وراء، وآخره نون، حصن وثيق بالقرب من صور. ياقوت معجم البلدان ج ٣. ص ٣٥٦.

٣٠٠ متراً، وكان يسمح للحامية الصغيرة المتواجدة فيه أن تحذر حاميات الساحل من وصول أية قوات معادية تمر عبر منطقة جزين والمعلومات غير متوافرة في المصادر التاريخية عن الزمان الذي استولى فيه الصليبيون على هذا الحصن سوى أنه في عام ١٢٤٠ م. وبعد المعاهدة التي عقدت بين الملك الصالح إسماعيل وبين الفرنج وفي الاتفاق الذي عقد في عام ١٢٥٠ م بين سلطان مصر والملك لويس التاسع سمح للفرنج بأن يحتفظوا ببعض المناطق كان من بينها صور وصيدا وشقيف تيرون. وفي عام ١٢٦١ م نزل عليه الظاهر بيبرس وكان خراباً فأمر بعمارته وضمه إلى حكم المماليك.

٥ - قلعة هونين

أ ـ اسمها:

أطلق الصليبيون الحصن الجديد Chateau neuf على حصن هونين بناها في سنة ١١٧٩ م أونفري الثالث دي طورون Onfray Dritoron III أمير جيوش مملكة أورشليم ثم سلمت هذه الإقطاعة سنة ١١٨٢ م إلى الملك بودوين الرابع Beudoin وهذا أهداها إلى الكونت جوسلين Jocelin الثاني [١].

ب ـ تاريخها:

قلعتها مشرفة على الحولة ولها خندق عميق محفور في الصخر ولها أخبار كثيرة في تواريخ سنيها وهي اليوم خراب[٢]. وخرائب البلدة تتكدس على غربي الرابية المتوجة بالحصن، وهو حصن قديم رممه العرب تحميه من شماليه خنادق عميقة منقورة في الصخور تعلوها

(١) لويس لورتة، تعريب كرم البستاني مشاهدات في لبنان ص ٢٠٢.
(٢) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ١٦٤.

أسوار سميكة[1]. ويتابع الرحالة **لورتة** قائلاً: «متعنا عيوننا في داخله بمنظر بعض غرف قوطية منسة نسبياً جزئياً «ولكنها لسوء الطالع تكاد تكون مملوءة بروث المواشي التي يزربها العرب فيها في بعض فصول السنة». احتلها صلاح الدين مع بقية القلاع في مملكة القدس عقب معركة حطين ١١٨٧ م وظلت في يد الملوك الأيوبيين إلى تمام ١١٤٠ م عندما أعيدت إلى الفرنج إثر اتفاقية بينهم وبين الملك الصالح إسماعيل ملك دمشق، وظلت في يد الفرنج حتى تسلمها الظاهر بيبرس المملوكي عام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م.

في الجنوب الغربي حصن مدرج ينتهي ببرج مربع بني بحجارة غليظة يدل شكلها على أنها من الأزمنة العادية الأولى. وفي الشرق على حافة هوة تكون أحد جدران وادي الغور. كثير من زوايا الحصن المدّورة سقطت في زلزال سنة ١٨٣٧ م ينحني بعضها فوق تلك الهوّة بصورة خلاّبة. وفي جنوبي الحصن غير بعيد، مستنقع علوه ستمائة وخمسون متراً يستعمل مورداً للمواشي «وهي الثروة الوحيدة التي يملكها أهالي القرية» وقد ذكرها ابن جبير في رحلته قائلاً: «هذه المدينة «أي بانياس» ثغر بلاد المسلمين وهي صغيرة... لها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج يسمى هونين، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ. وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين، لهم في ذلك حدّ يعرف بحدّ المقاسمة فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة.. ثم يشير إلى وجود قرية تعرف بالمسية بمقربة من حصن هونين قائلاً: «رحلنا إلى

(١) لويس لورتة، تعريب كرم البستاني، مشاهدات في لبنان ص ٢٠١.

قرية تعرف بالمسية بمقربة من حصن الإفريج المذكور فكان مبيتنا بها»[1].

هذه القلعة لها ذكر في الفتوح والحروب الصليبية حولها خندق جله منحوت في الصخر، وقد أورد صبح الأعشى أنها بنيت بعد الخمسمائة، قال وجعل العثماني في تاريخ صفد قلعة هونين من عمل الشقيف.

وفي معجم البلدان لياقوت: «هونين بالضم ثم السكون ونون ونون أخرى بلد في جبل عاملة مطل على نواحي مصر[2].

ويقول العلاّمة السيد محسن الأمين: «ويظهر أنه لم يكن فيها سابقاً غير الحصن وإن القرية حادثة فتحها صلاح الدين الأيوبي فيما فتحه من تلك القلاع كقلعة تبنين وشقيف أرنون. وجدّد تعمير قلعة هونين حكام تلك البلاد من أمراء المسلمين ولا يعرف لها ربض سكنها من العشائر آل علي الصغير قبلان الحسن بفتح الباء وذلك في عهد ناصيف النصار ولهم فيها آثار وعمارات محكمة منها الجامع الباقية منارته وبعض حيطانه إلى اليوم[3].

وفي أعلى الجبل الذي فوق هونين بينها وبين المنارة شجرات عديدة ضخمة تسمى «شجرات العباد أو العبابيد». وتنسب إليها أسطورة فيقال: «إنه كان عندها سبعة أنفار منقطعون للعبادة وأنهم كانوا يسكنون في خيمة هناك ولم يبنوا بيتاً زهداً في الدنيا وكانوا

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧٣ - ٢٧٤.
(٢) ياقوت معجم البلدان ج ٥ ص ٤٢٠.
(٣) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٣٦٨.

يعملون الحصر المعروفة بالعبدانية نسبة إليهم ويبيعونها في هونين بالمناوبة ويقتاتون من ثمنها وإن ملكاً من الملوك زهد في الدنيا فترك الملك وذهب مع بنت له صغيرة أمرها أن تتزيا بزي الرجال حتى لا تعرف ولا يطمع فيها أحد وصار هو وابنته في جملتهم ثم توفي وبقيت ابنته وهم لا يرونها إلا غلاماً فلما كانت نوبة ذلك الغلام في بيع الحصر حضر إلى هونين فرأته ابنة الملك فهويته فأرسلت وراءه ودعته إلى نفسها فأبى فتركته ثم إنها حملت من غيره وظهر حملها وعلم بذلك أبوها فسألها فقالت إنه من الغلام الذي مرّ مع العباد فعزم على قتله وبلغ الغلام ذلك فدعا الله تعالى أن يقبضه إليه فأصبح ميتاً فلما نزعوا عنه ثيابه ظهر ثدياه فعلموا أنه بنت فأخبروا الملك بذلك فعلم كذب ابنته وكفنه ودفنه وأحسن إلى العباد. والله أعلم».

وسواء صحت هذه الحكاية أم لا فوجود شجرات بذلك المكان تسمى شجرات العباد ووجود نوع من الحصر يسمى العبداني يدل على أن وجود عباد بذلك المكان يصنعون الحصر ويقتاتون من ثمنها أمر واقع. وهي ما زالت معروفة حتى اليوم. وبمجرد لفظ كلمة شجرة العباد يتبادر إلى ذهن العاملي المكان الموجودة فيه علماً بأنها تحت سيطرة العدو الصهيوني منذ عام ١٩٤٨. أما الرحالة السيد إدوارد روبنصون فيذكر هونين ويسميها حونين من جملة المواقع التي زارها قائلاً (١): «استأنفنا السير الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين وهبطنا باتجاه هونين فوصلنا الساعة الثامنة شاهدنا أطلال حصن كبير وبجواره قرية صغيرة إلى الجنوب.

(١) إدوارد روبنصون، تعريب أسد شيخاني، يوميات في لبنان ص ٢٢٥.

تقع الأطلال والقرية على تل رحب منخفض واقع في حز الجبل يمتد إلى الشمال الغربي والجنوب الشرقي ويشق الجبل حتى نصف المسافة من أسفله تقريباً والوادي الضيق الواقع إلى الشمال الغربي يجري إلى الليطاني وفي الشرق وادٍ صغير يجري منحدراً باتجاه الحولة. تتبع هونين إقليم بلاد بشارة وقد سكنها سابقاً فرع من عائلة المشايخ الحاكمة «ويقصد بذلك عائلة آل علي الصغير». ولكن منذ زلزال عام ١٨٣٧ م لم يعد الحصن صالحاً للسكن[١]

أما الحصن الأقدم فقد شغل مساحة أكبر شملت أكثر الأرض المبنية عليها القرية في الجنوب والحصن التركي الذي وجد بعده وكان يشتمل على تسعة أو عشرة أبراج مستديرة لم يشغل سوى ثلث المساحة نفسها في الشمال. وهذا أيضاً لم يبق منه سوى أطلال.

ممّ يتألف هذا الحصن؟[٢]

زاوية الحصن الشمالية الغربية وجداره الشمالي أُسِّسا على صخر صلد قد إلى عمق عشرين قدماً ومثلها عرضاً في بعض أنحائه. والجدار الشرقي يمتد بجانب حاجب التل لا وجود لآثار قديمة في هذا الجزء الشمالي سوى بضعة أحجار منحرفة الزوايا في الجانب الشرقي. وبالقرب من الرتاج التركي، في الجانب الجنوبي حجر ضخم منحرف الزوايا. وتوجد أحجار منحرفة الزوايا متفرقة هنا

(١) هذا ما أشار إليه لويس لورتة أيضاً.

(٢) إدوارد روبنصون، تعريب أسد شيخاني، يوميات في لبنان ص ٢٢٦.

وهناك وبعضها بني في حيطان بيوت القرية. في القرية وخارج الحصن الذي بني فيها بعد رتاج قديم قائم بشكله الكامل تقريباً مبني من حجارة كبيرة منحرفة الزوايا وباقية في مكانها ولها أخاديد للأبواب. والخاصية التي تميز هذا الطلل أنه في سائر جدرانه عدة أجزاء أو قطع من حائط قديم مبني من حجارة غير منحوتة إلا من ناحية وجهها. والحصن كان قديماً غاية في المناعة. ومنه يمكن المرء أن يرى طرف البحيرة الشمالي الشرقي «بحيرة الحولة» وقد زار هذا الحصن القس تومسون في السنة ١٨٤٣ م.

وقد ظلت هونين بيد الإفرنج حتى استسلمت زمن الحصار على صور وكان استسلامها بسهولة. وفي سنة ٥٦٢ هـ اجتمع صلاح الدين بأخويه قطب الدين ونور الدين للغزاة وساروا إلى بلاد الإفرنج فخربوا هونين[1].

هذا وكان بودي أن أقوم بزيارة هذه القلعة ولكن وقوعها تحت الاحتلال الإسرائيلي منذ عام ١٩٤٨ حال دون ذلك فاكتفيت بما أورده الكتاب والمؤرخون عنها.

٦ - قلعة شمع[2]

أ ـ موقعها:

تقع على سلسلة الجبال التي تنتهي برأس الأبيض في أقصى

---

(١) علي الزين من الحوادث العاملية ص ٩٥٢.

(٢) شمع: كلمة أرامية معناها السمع. ويقال أيضاً نسبة إلى النبي شمع وله مزار في البلدة يقصده أهل المنطقة لإيفاء نذورهم، عفيف مرهج، أعرف =

الجنوب تشرف على صور وسهولها. ويقال ان بوابة عكا الشهيرة بصمودها أيام الجزار أخذت من قلعة شمع.

ب ـ ممّ يتألف هذا الحصن؟

هذه القلعة بنيت من حجارة صخرية قديمة. وهي مصونة بأسوار داخلية غير الأسوار الخارجية... وفي فناء الشرق المتساوق شكله تساوقاً جميلاً بعض أبواب من الرخام الأبيض والأسود ذات أناقة فائقة. وفي أحد أطراف الحصن نافذة بقنطرتين «قمندلون» لطيفة ذات قبتين قوطيتين تدلان على هندسة عربية. أما الأسوار التي تهدم قسم من أعاليها. فقد توارى عنها كل ما كان على الحصن الخارجي من شرفات الرماية. ويتمتع الناظر من أعالي الأسوار بمشهد مترامي المدى ينبسط على الساحل منذ عكا وجبل الكرمل إلى ما بعد صيدون وتعلو هذه الأطلال عن سطح البحر ٤٢٠ م[1] وهي أحد الحصون الكثيرة الباقية من عهد الصليبيين[2] ويوجد فيها آبار وأقبية لجمع المياه يستعملها الأهالي حتى اليوم. وهي أحد الحصون التي كانت تحمي الممالك المسيحية في صور وعكا وطبريه حتى وادي الأردن وبانياس.

= لبنان، المجلد ٦ ص ٢٤٥.

(١) لويس لورتة، تعريب كرم البستاني مشاهدات في لبنان ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٢) إدوارد روبنصون، تعريب أسد شيخاني يوميات في لبنان ص ١٧٧.

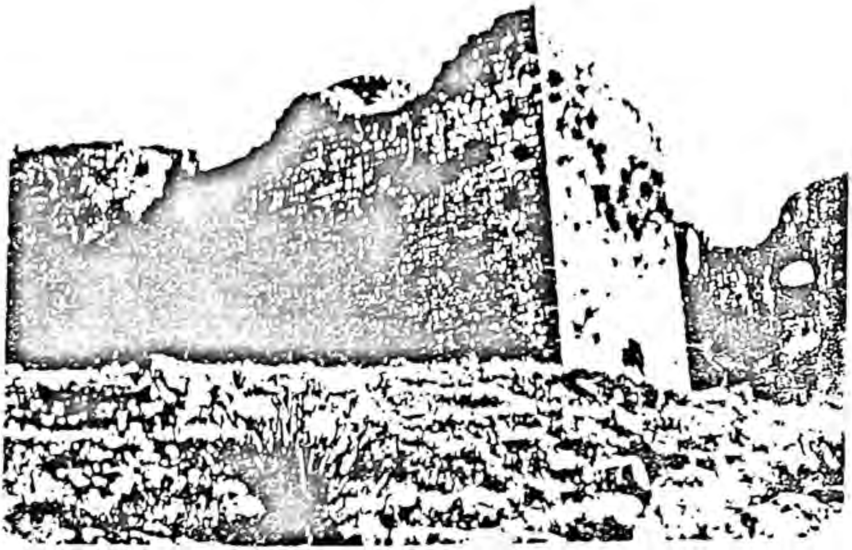

٧ - قلعة مارون

أ - موقعها:

تقع شمالي غربي بلدة دير كيفا[١] تبلغ مساحتها حوالي ثمانية آلاف متر مربع تقريباً. بناها الصليبيون على أنقاض قلعة رومانية. توجد فيها آبار يقول أهالي دير كيفا أنها على عدد أيام السنة وفيها خرائب قديمة محاطة بسور وعلى كل زاوية منها برج ظاهر حتى اليوم. أما خارج الأسوار فتوجد مقبرة قديمة مبنية على نفس طراز بناء القلعة.

جدَّد بناءها الشيخ عباس العلي وكان على عتبة بابها هذا التاريخ:

(١) بلدة قديمة في قضاء صور كانت في القرن الخامس عشر ديراً للرهبان الكاثوليك.

عـوذوهـا إن فـيهـا   للعـدى داء مغـيـظا
جنـة والنـار فـيهـا   تحـرق القظ الغليـظا
شـادها عبـاس حصناً   للعدى زادت حظوظـا
فـهي دار الخـلد أرّخْ   وكـفـى الله حـفـيـظا

وفي مقابلة أجريتها مع أحد سكان هذه القلعة السيد كايد بندر بتاريخ ٢٥/٩/٧٨ قال: عندما احتلت فـرنسـا لبـنـان كان تاريخ القلعة المكتوب موجوداً في بلدة أرزون، وعندما أقدمت على إحراق هذه البلدة احترق التاريخ العائد للقلعة حيث كان موجوداً في منزل الشيخ حسن رضا الذي كان يسكن فيها قديماً.

وإلى جانب القلعة وجد السيد حسن ذياب البندر قطعة معدنية دُوّن عليها عبارة «سلطان البرين وخاقان البحرين» ويعود تاريخها إلى سنة ١١١٣ م وعليها صورة نسر من الجهة الثانية والكتابة بالأجنبية، ويذكر أن السيدين مسعود وسعدون البندر دفنا فيها.

ولقد توالت عائلة البندر على السكن فيها ويعود أصل هذه العائلة إلى علي بك الصغير (جد آل الأسعد) الذي كان يسكن في القلاع المجاورة.

ومنذ حوالي ١٥٠ سنة كان يسكنها السيد حسن البندر وجاء بعده جميل ومسعود وبشير ومحمد سعيد ونايف وكايد وواكد ويوسف أبناء محمد سعيد الذين بقوا فيها حتى سنة ١٩٦٣ م وكان البناء لا يزال قائماً.

ويذكر أحد سكانها المدعو محمد كايد البندر أنه حضر مسؤولون

من الدوله اللبنانية وطلبوا السماح لسكان من دير القمر الإقامة فيها إلا أن السيد حسن البندر تقدم بدعوى إلى المراجع المختصة محتجاً على ذلك ومدعياً بأنها ملك له. ولقد حصل على قرار من الدولة اللبنانية باعتبارها ملكاً له وقبولها السكن فيها لمن توالى من عائلة البندر لقاء رسم رمزي يدفع سنوياً وما زال الوضع حتى اليوم.

ب ـ ممَّ يتألف هذا الحصن حالياً؟

ـ يتألف حالياً من تسعة أبراج: من الشرق برجان ومن الجنوب برجان، من الغرب برجان ومن الشمال ثلاثة أبراج.

ـ طول القلعة من الشرق إلى الغرب حوالي أربعمائة متر وعرضها خمس وعشرون متراً، تضيق كلما اتجهنا من الشرق إلى الغرب.

ـ أقبيتها ورماياتها وأسوارها متعددة.
ـ تكثر فيها الأقبية من جهة الآبار.
ـ مساحة كل قبو أربعة وعشرون متراً.

بالقرب منها جبل مارون الذي يقع شرقي بلدة دير كيفا وباسمه سميت القلعة.

٨ ـ قلعة أبي الحسن[١]

أ ـ موقعها:

في معجم البلدان لياقوت: قلعة عظيمة ساحلية قرب صيدا بالشام فتحها يوسف بن أيوب وأقطعها ميموناً القصري مدة ولغيره

(١) ياقوت. معجم البلدان ج ٤ ص ٣٨٩.

ويظن أنها المسماة بقلعة ميس وفي القاموس: قلعة أبي الحسن قرب صيدا وفي تاج العروس بساحل الشام وهي المعروفة بقلعة الموت تاريخ عمارتها سنة ٥٧٧ هـ. وكان موقعها يسمح لحاميتها بأن تفاجىء أية فرقة عسكرية تحاول السلوك في وادي نهر الأولي الضيق، وكانت حماية طريق صيدا دمشق تتم بواسطتها وبواسطة قلعة شقيف تيرون وجزين.

٩ - الآثار الصليبية الأخرى

وهناك عدة آثار ثانوية في جبل عامل ليس لها أثر تاريخي وهي على الأغلب مما خلفه الصليبيون من آثار منها أطلال كاتدرائية في جنوبي صور وهي مندمجة في أسوار المدينة على اسم القديس مرقص. شيدها في أوائل القرن الرابع عشر المطران بولين Paulin بأموال بعثت إليه من مدينة البندقية وكرسها أيزوب العالم مطران قيسارية طولها سبعون متراً وعرضها اثنان وعشرون متراً وهي تشتمل على قبور عدد كبير من مشاهير رجال الأزمنة الأولى الصليبية... قبر Origene الذي عذب في صور في اضطهاد سنة ٢٤٩ هـ وتحت أنقاضها كونراد دة مونفرا Conrad de Mont Ferrat الذي قاتل عن صور في وجه جيش صلاح الدين الأيوبي وهلك مقتولاً سنة ١١٩٢م(١). وقد قتله رجال شيخ الجبل وهو لقب زعيم فرقة الحشاشين التي ألفها في العجم حسن ابن الصباح وكان شيخها يقيم في قلعة الموت لقبوا بالحشاشين لأنهم كانوا يسكرون وكثيراً ما

---

(١) لوريس لورته، تعريب كرم البستاني، مشاهدات في لبنان ص ١٢٩ - ١٣٠.

كانوا يعتدون على الصليبيين ويقتلون منهم وأخذ الفرنسيون لفظة Assassin من اسمهم. ويقدر كذلك أن باوس بربروس الرهيب وفردريك الأول ملك ألمانيا مدفونان هناك[1].

ثم يقول لورتة في نفس الرحلة «ص ١٢٦» وصلنا إلى الشاطىء الشمالي لصور من برزخ رملي يربط شبه جزيرة صور باليابسة. ثم دخلنا هذه المدينة الشهيرة من بابها الوحيد وهو ينفتح تحت برج واسع مربع يدل بناؤه السفلي على أنه من عهد الصليبيين.

وجنوبي البرزخ غير بعيد عن البساتين برج قديم بناه الصليبيون بحجارة مرصوصة منحوتة نحتاً محدب الشكل ويسمى برج المغاربة أي سكان شمالي أفريقيا[2]. وهناك آثار صليبية أيضاً ليس لها أثر تاريخي أوردها إدوارد روبنصون لدى زيارته لصيدا فقال[3]: «. . . تقع صيدا أو صيدون القديمة على المنحدر الشمالي الغربي على رأس أرض صغير يمتد منحرفاً في البحر إلى مسافة قصيرة باتجاه الجنوب الغربي. أما الأرض في الجنوب فأكثر ارتفاعاً من سواها وعليها تقع القلعة وهي عبارة عن برج كبير مربع قيل لنا إن لويس التاسع شيدها عام ١٢٥٣ م ويستطرد قائلاً: هذا ما قصّه الفرنسيون المقيمون في صيدا وقد تكون القصة صحيحة. وعلى صخرة في البحر قلعة من أيام الحروب الصليبية بنيت على شكل مطابق لشكل

---

(١) لويس لورتة، تعريب كرم البستاني مشاهدات في لبنان ص ١٣١.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٤١.

(٣) إدوارد روبنصون، تعريب أسد شيخاني، يوميات في لبنان ص ٥٨ هامش ١١٨ ص ٢٦٥.

الصخر، ويتصل بالشاطىء في طرف المدينة الشمالي تمر من الحجر ذي تسع قناطر يقع بين المرفأ الداخلي والمرفأ الخارجي.

وكان فيها حصن في البحر في الجهة الشمالية بناه في الأصل صليبيون ألمان وفي الجنوب على الأكمة حصن آخر كان الهيكليون يحتلونه وقتئذٍ[1]. أما آثار الصليبيين في عكا والخراب الذي حل بها فيصفها كل من المؤرخين أوجين روجير Eugene Roger عام ١٦٤٥ ودوبدان Doubdan عام ١٦٥٢ ودارقينو عام ١٦٥٨ ويقول هذا الأخير: «إن المكان (أي عكا) كومة من الخرائب الضخمة غطت قسماً منها الرمال التي حملتها الرياح ويذكر خمسة أبنية باقية من عهد الصليبيين وهي:

١ ـ كنيسة القديس أندراوس.
٢ ـ مصنع الأسلحة البحرية.
٣ ـ المستشفى الخاص بالفرسان المستشفين.
٤ ـ قصر أستاذهم العظيم.
٥ ـ كنيسة القديس يوحنا الملاصقة له[2].
٦ ـ وهناك آثار صليبية زالت بزوال الصليبيين لاسيما بعد عملية التدمير التي قام بها من بعدهم المماليك خوفاً من استعادتها من قبل الصليبيين.

فلقد ورد لدى بعض المؤرخين أن الصليبيين أقاموا قلعة في تل المعشوق قرب صور ولكني لم أجد إلا ما كتبه الرحالة إدوارد

(١) نفس المرجع السابق ص ٦٤.
(٢) إدوارد روبنصون، تعريب أسد شيخاني يوميات في لبنان ص ٢٠١.

روبنصون لدى مروره في تلك المنطقة قوله: «.. تمتد سلسلة من القناطر المخربة من المعشوق إلى صور وهي تخص قناة ولكن القسم الأكبر منها منهدم «ص ٣٤».

أما الظاهري المؤرخ العربي حوالي منتصف القرن الخامس عشر فيذكر المعشوق مع صور ويقول إنها مدينة مخربة ومقفرة وتكاد تكون قرية فحسب.

ومن آثار الصليبيين أيضاً طريق للعجلات معبد بين صور وبانياس يمر في بلدة دردغيا[١] وآثاره باقية حتى اليوم[٢].

ولقد كان للصليبيين عدة أبراج للمراقبة في منطقة جبل عامل زالت معالمها ولقد قمت بجولة على عدة قرى شملت القرى التالية: قلويه وبرج قلويه وفرون وكفره واستفسرت من الأهالي ولم أستطع الحصول على أمكنة هذه الأبراج.

وبتاريخ ١٩٧٧/٨/٢٩روى لي أحد الأصدقاء بأنه يوجد آثار صليبية في بلدة بنت جبيل القديمة «حي آل بزي» ورغم القصف اليومي لهذه البلدة فقد ذهبت تواً إلى البيت الذي قيل لي إن فيه من هذه الآثار وهو المعروف «بدار بيت صالح» ولقد سجلت الملاحظات التالية:

- بنت جبيل القديمة عبارة عن مجموعة من البيوت التي كانت قديماً مبنية من الطين تقوم على تلة تتحكم بالوادي الذي تسير فيه الطريق إلى رميش.

---

(١) بلدة تابعة لقضاء صور.

(٢) محسن الأمين خطط جبل عامل ص ٢٨٤.

- مساحة هذه البلدة لا تتعدى أربعة آلاف من الأمتار المربعة.
- المدخل الجنوبي لهذا القسم هو عبارة عن بوابة لا زالت قائمة وتعرف «بدار بيت صالح» وهذا المدخل يؤدي إلى مجموعة سكنية اتخذتها عائلة إقطاعية محلية مسكناً لها «صالح بزي».
- بيوت هذه المجموعة مبنية بحجارة ضخمة كانت فيما مضى لبناء كنيسة والدليل على ذلك:

١ - ما كشفت عنه بعض الحفريات في ساحة هذه المجموعة. اكتشاف صليب حجري وفخاريات لم يجر تحديد تاريخها.
٢ - أنفاق وسراديب تحت الأرض تدل على أنها استعملت كمرابط للخيل ولخزن الحبوب.
٣ - وفي أماكن قريبة من هذه المجموعة لا زالت هناك تحت الأبنية السكنية الحالية الكثير من هذه الأنفاق المنحوتة في الصخر بحيث يتسع بعضها ليكوّن وحدات سكنية تحت الأرض.
٤ - تحت أحد الجوامع الموجودة في المنطقة آثار لكنيسة متهدمة.
٥ - بالقرب من أحد هذه الجوامع هناك حجر صواني نقشت عليه كتابة لاتينية «لم يجر ترجمتها».
٦ - يذكر المسنون أن الكثير من البيوت الحالية بنيت بحجارة نقلت من خرائب بالقرب من «دار بيت صالح» ويستطع المتجول أن يلاحظ أن هذه الحجارة قائمة في أسس كثير من البيوت.

وبين بنت جبيل وعين إبل منطقة تسمى شلعبون تقع على رأس ربوة من بناء الصليبيين فيها كثير من الآبار المتناهية في العمق والمدافن المنقورة في الصخر على الطريقة المألوفة للروم والصليبيين في

تلك البلاد بأن تحفر صخرة كبيرة كالصندوق وتجعل قبرا أو قبرين بينهما حاجز ويجعل لها غطاء من الصخر بقدرها ظهره محدب وذلك بعدما تنفصل من الصخر وتنقل إلى المكان الذي يراد وضعها فيه، كما وجد صورة الصليب على ظهر الغطاء وكتابة باللاتينية[1].

الآثار الصليبية في بلدة برعشيت:

وفي بلدة برعشيت التي لا تبعد سوى مئات الأمتار عن حصن تبنين الصليبي سجلت الملاحظات التالية عن الآثار التي ما زالت موجودة حتى الآن:

- برعشيت القديمة تقع إلى الجهة الجنوبية الشرقية من حصن تبنين في منطقة تسمى عريض العين.
- آثار البلدة القديمة في المنطقة التي تسمى حالياً الدير. تجولت في هذه المنطقة فوجدت ثلاثة آبار ظاهرة للعيان بشكل مثلث يحتوي على بركة مشيدة بمواد فخارية والحجارة المتبقية كبيرة تدل على أن الأبنية قديمة وهي شبيهة إلى حد ما بحجارة قلعة تبنين - بارزة في الوسط وناعمة على الأطراف - إلى جانب ذلك هناك مغاور وكهوف قديمة تحتوي على أواني منزلية «سراجات فخارية» وهذه المغاور ليست طبيعية يبدو عمل الإنسان فيها واضحاً.
- وجدت في قطعة أرض السيد خليل إبراهيم شهاب عاموداً مطموراً في الأرض وبالسهولة يمكن الكشف عليه، قطره ما يقارب «٣٠ سم» ولم أستطع تحديد طوله لأنني لم أستطع الكشف عليه حتى نهايته.

---

(١) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٣٠١.

- بالقرب من الدير منطقة أخرى تسمى «الخارة» تحتوي على آبار وآثار مطمورة في الأرض وفيها معاصر يستدل أنها كانت للخمور...

- على نفس الخط باتجاه حصن تبنين تقوم عين ديرقنيا نسبة إلى الدير الذي يذكر المسنون في برعشيت أنه كان قائماً في برعشيت القديمة وباستطاعة مديرية الآثار إجراء الكشف اللازم على هذه الآثار وكلها مطمورة تحت الأرض والمتجول في تلك المنطقة وأهالي برعشيت يذكرون جيداً أن منطقتي الدير والخارة غنية بالآثار وهي بحاجة إلى من ينقب عنها ونتيجة لقربها من حصن تبنين يستدل أنه كان لها أثر كبير في حماية الحصن من الأخطار وربما كانت تحتوي على أبراج كان لها دور في إعلام القلعة عن كل زاحف نحوها.

الآثار الصليبية في ديردغيا:

وبتاريخ ١٩٧٨/١/٢ قمت بزيارة إلى بلدة ديردغيا[١] وأجريت مقابلة مع أحد المسنين المدعو «حنا خوري أبو رامز» الذي صرح لي قائلاً: إن الطريق التي كانت تربط صور ببانياس مروراً ببلدته ديردغيا هي نفسها الطريق الحالية التي تربط صور بصريفا مروراً بديردغيا إلا أن آثاراً لها ما زالت موجودة بالقرب من العين في المنطقة التي تسمى «بودي».

ولقد صرّح لي أيضاً أن بلدة صليبية قديمة تدعى بروخي كانت قائمة على الطريق الذي يصل إلى بلدة باريش إلى الجهة اليمنى بعد

---

(١) بلدة في قضاء صور بالقرب من بلدة صريفا.

بئر القلعة وعلى بعد مئة متر منه اندثرت مع الزمن وأن عين دير دغيا ما زالت تعرف باسم عين بروخي نسبة إليها.

وفي بلدة شقراء مدافن قديمة من زمن الصليبيين مبنية تحت الأرض بكثرة وقبور لغير المسلمين لم تفن عظامها ومدافن منحوتة في الصخر الأصم في الصخرة الواحدة قبران لهما غطاء من الصخر، وقد صور على أحد جانبي المدفن صورة صليب وعلى الجانب الآخر صورة شمس، ويوجد في هذه المدافن والقبور أواني الزجاج وسرج الفخار وقطع ذهبية من زينة النساء[1].

وفي منطقة جبل عامل قرى أصلها صليبي أذكر منها قرية فرون Front التي تقع في قضاء بنت جبيل «ضمن التقسيمات الإدارية» وهي آخر قرية في القضاء من الجهة الشمالية تقع على الطريق العام الذي يصل قرية الغندورية بنهر الليطاني عند جسر القعقعية على طريق النبطية وهي مشرفة على قلعة الشقيف وعلى الوديان الواقعة قربها وأذكر منها وادي الحجير الذي لعب دوراً هاماً نسبة إلى المطاحن التي كانت موجودة فيه. وفي عام ١٩٢٠ م انعقد مؤتمر وادي الحجير الشهير بعد حادثة عين إبل ضم الأعيان ورجال الدين المسلمين في جبل عامل واتخذ مقررات على رأسها الالتحاق بالدولة العربية التي أعلنها الأمير فيصل بن حسين في دمشق. وفي بانياس[2] قلعة صليبية هامة أيضاً.

---

(١) محسن الأمين خطط جبل عامل ص ٢٩٥.

(٢) بتاريخ ١٩٧٧/٩/١٣ عرض تلفزيون العدو الصهيوني قلعة بانياس الواقعة تحت احتلاله. هذه القلعة تسمى قلعة نمرود بناها الصليبيون وهم =

١٠ ـ القرى التابعة لإمارة صيدا

أورد Rey[1] لائحة بعدد كبير من القرى التابعة لإمارة صيدا، منها ما زال موجوداً حتى الآن ومنها ما هو غير محدد الموقع واسمه غير معروف في أيامنا الحاضرة. والقرى التي ما زالت موجودة هي:

- Adelon (عدلون) تقع على الطريق الساحلي بين صيدا وصور.
- Baodran (بعدران) باعها جوليان دوساجيت إلى فرسان التوتون في ١٠ كانون الثاني سنة ١٢٥٧ م. وتقع حالياً في منطقة الشوف.
- Bahaclin (بعقلين) تابعة لمنطقة الشوف حالياً.
- Barouc (باروك) تقع على الطريق بين بيت الدين وعين زحلتا.
- Beaufort (شقيف أرنون) وهي قلعة حصينة مشرفة على سهل مرجعيون ومنطقة النبطية.
- Beddei (بيت الدين) تابعة حالياً لمنطقة الشوف باعها صاحب الشوف أندريه (André) لفرسان التوتون سنة ١٢٦١ م.
- Belhacem (قلعة أبو الحسن) قريبة من مدينة صيدا.
- Bennouthe (بنواتي) باعها أندرية صاحب الشوف إلى الترتون ١٢٦١ م.
- Bessetfin (بشتفين) تقع في منطقة الشوف.

= في طريقهم إلى الشام وبقيت تحت سيطرتهم حتى سنة ١١٣٢ م ولقد ظهر التفكك والانحلال بشكل بارز ولم يعد قائماً منها سوى برج كبير.

(١) Rey. E. Les colonies F. de syrie aux XII et XIII siècles p. 510 - 520.

- Bethlon (بتلون) تقع في منطقة الشوف.

- Bether (باتر) آخر بلدة في منطقة الشوف على حدود بلدة جزين.

- Bikicin (بكاسين) تقع حالياً إلى الشمال من بلدة جزين.

- Boocasta (بقسطا) تقع في منطقة صيدا.

- Cafernebrach (كفرنبرخ) تقع إلى الشرق من بيت الدين في منطقة الشوف.

- Cave de tyron (شقيف تيرون) قلعة تشرف على معظم الطرقات. تقع على محاذاة بلدة جزين.

- Gebbach (جباع) تقع في منطقة النبطية حالياً.

- Gezin (جزين) مركز قضاء جزين حالياً.

- Hayn zehalta (عين زحلتا) تقع على الطريق المؤدية من بيت الدين إلى عين دارة.

- Jebha (جباع الشوف) باعها جوليان دوساجيت لفرسان التوتون سنة ١٢٦١ م.

- Kaytule (قيتولي) تابعة لقضاء جزين حالياً.

- Mogarie (مغيريه) من قرى قضاء الشوف.

- Niha (نيحا) تابعة لمنطقة الشوف وهي بالقرب من بلدة باتر.

- Sogette (صيدا) مركز محافظة الجنوب حالياً ومن أهم البارونيات الكبرى في مملكة القدس حكمتها عائلة من الفرنسيين نسبت اسمها إليها ومنها جوليان دوساجيت ورينو دوساجيت وباليان دوساجيت.

- Sarepta (صرفند) تقع على الطريق العام بين صيدا وصور

حالياً وهي من أهم إقطاعات البارونية في مملكة القدس.

- Gazia (غازية) بلدة تقع إلى الجنوب من صيدا.

أما بقية القرى والتي لم نورد اسمها في اللائحة التي ذكرت فإن اسمها اللاتيني غير معروف حاليا ولا يمكن معرفة مكان وجودها لأنه من المستحيل التوصل إلى معرفة ذلك من خلال النص[1].

(١) لمزيد من التفاصيل راجع Rey. E. Les colonies F. aux XII et XIII siécles. P. 510 - 520.

الفصل الرابع

نهاية الصليبيين في جبل عامل

أ ـ سقوط تبنين وصيدا بيد المسلمين.
ب ـ حصار صور.
ج ـ سقوط قلعة هونين.
د ـ سقوط صفد بيد صلاح الدين الأيوبي.
هـ ـ محاصرة قلعة شقيف أرنون.
و ـ الهدنة بين صلاح الدين والصليبيين.
ز ـ جبل عامل يتبع دمشق.
ح ـ خيانة الملك الصالح إسماعيل بتسليم قلعة شقيف أرنون سنة ٦٣٨ هـ إلى الصليبيين.
ط ـ بيبرس يحاول القضاء على الصليبيين.
ي ـ سقوط جميع المراكز الصليبية في جبل عامل بيد المماليك.
ك ـ لمحة عن المعاهدة بين السلطان قلاوون وأميرة صور.
ل ـ نهاية الصليبيين في جبل عامل.

ـ الأسلوب الدفاعي عند الصليبيين.
ـ جبل عامل بعد انتهاء الحكم الصليبي.

نهاية الصليبيين في جبل عامل

أ ـ سقوط تبنين وصيدا بيد المسلمين:

بعد ثلاث وسبعين سنة من احتلال الفرنج لصيدا أي سنة ٥٧٧هـ/١١٨٢ م كانت طلائع الجيوش المُنقذة قد زحفت من بعلبك حتى بلغت مدينة صفد ثم تقدمت إلى جبل عامل فاحتلت مغارة قلعة الشقيف ودام احتلالها لها سنتين حتى فاجأها بلدوين الثالث وحاصرها عشرين يوماً حتى سلمت له وعادت إلى الفرنج من جديد سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٤ م وبعد ذلك بأربع سنوات فقط كانت البلاد قد أخذت تتخلص من الفرنج وكانت موقعة حطين قد حدثت وسقطت طبرية والناصرة والحولة وبانياس وغيرها.

وبعد احتلال قلعة تبنين في ٢٦ تموز سنة ١١٨٧ م على يد صلاح الدين، تابع طريقه إلى صيدا عبر الصرفند فاستسلمتا دون مقاومة بعد ثلاثة أيام في ٢٩ تموز سنة ١١٨٧ م وقد هرب امير صيدا رينو دو ساجيت إلى قلعة الشقيف واحتمى فيها. ولقد أورد ابن الأثير[١] ذلك بقوله: وأما صيدا فإن صلاح الدين لما فرغ من تبنين رحل عنها إلى صيدا فاجتاز بطريقه الصرفند فأخذها عفواً

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ ج ١١ أخبار سنة ٥٨٣ هـ ص ٥٤١.

عفواً بغير قتال وسار عنها إلى صيدا وهي في مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلّمها ساعة وصوله وكان ملكها حادي عشر جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م وباحتلاله صيدا لم يبق خارج سلطة صلاح الدين إلا شقيف أرنون التي لجأ إليها أمير صيدا.

وقد ذكر الشيخ سليمان ضاهر(١) ذلك قائلاً: «إنه بعد أن انتصر السلطان صلاح الدين في موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م سيّر ابن أخيه تقي الدين إلى تبنين فلما وصلها نازلها وأقام عليها فرأى حصارها لا يتم إلا بوصول صلاح الدين فأرسل يعلمه الحال ويحثه على الوصول إليه فرحل ثامن جمادى الأولى ونزل عليها حادي عشره فحاصرها وضايقها وقاتلها بالزحف وهي من القلاع المنيعة فلما ضاق عليهم الأمر واشتد الحصار أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل وبقي الفزع كذلك خمسة أيام ثم أرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم وبقيت في يده إلى أن توفي سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣ م فأصبحت في يد ولده الأفضل إلى سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٧ م وهي السنة التي ملك فيها عليه مدينة دمشق وأعمالها العادل أبو بكر أيوب.

وبسقوط صيدا وتبنين والصرفند وغيرها جلا الأجنبي بعد احتلال دام تسعاً وسبعين سنة.

---

(١) سليمان ضاهر مجلة العرفان م ٨. ص ٤٣٧.

ب ـ حصار صور:

وظلت صور وحدها معقلاً للفرنج وقد ازدادت منعة بمن وصل إليها من المقاتلين المستأمنين الذين قصدوها من كل مكان استسلم وأصبحت على حد تعبيـر صاحب الفتح القدسي[1] «عش غشهم ووكر مكرهم» وقد أدرك قواد الجيش خطأهم في ترك المقاتلين يذهبون إلى صور ويقول صاحب كتاب الفتح القدسي «وكان بها من الفرنج عدد كثير فإنه ما فتح بلد بالأمان إلا ذهب أهله إلى صور حتى امتلأت بالفرنج». ويبدو أن الخطة كانت عدم التعرض لصور وتركها حتى تضعف معنويات حماتها باستسلام المدن الأخرى علماً بأن بيروت وجبيل كانتا قد استسلمتا. بعد فتح القدس عادت الجيوش تحاصر صور وكانت صور قد استعدت أقوى استعداد واتخذت كثيراً من التدابير منها أنها قطعت نفسها عن البر بخندق حفرته من البحر إلى البحر فصارت جزيرة كاملة. وكان يقود معركة صور القائد الفرنجي الذي يعبر عنـه المؤرخون العـرب باسم «المركيس» ويبدو أنه كان على دهاء ومقدرة وشجاعة مما قوى أمر الفرنج في صور.

وبعد محاولات وهجمات من البر والبحر امتنعت صور وعجز المهاجمون فرحلوا بعد حصار دام أربعة أشهر ولم يسلم من المسلمين إلا من سبح ونجا.

وفي خلال حصار صور استسلمت هونين بسهولة في ٢٣ شوال سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م كما استسلمت قلعة أبي الحسن المعروفة

(١) الأصفهاني، صاحب كتاب الفتح القدسي.

بقلعة ميس.. وبعد رحيل الجيوش عن صور لم تنقطع المناوشات بينها وبين فرنج صور فكانت القوى تخرج أحياناً فتصطدم بالفرنج وهم خارجون للاحتطاب والاحتشاش محاولة استدراج فرسانهم إلى الأودية والجبال.

ولقد أورد ابن شداد[1] إنه قدم على الأسطول إنسان يقال له «الفارس بدران» وكـان ناهضـاً جلداً في البحر. وكـان رئيس البحريين يقال له: «عبد المحسن» وكان قد أكّد عليهم الوصية في أخذ حذرهم ويقظتهم لئلا تنتهز منهم فرصة، فخالفوه وغفلوا عن أنفسهم في الليل، فخرج أسطول الكفار من صور وكبسهم وأخذوا المقدمين كما أخذوا خمسة قطع، وقتلوا خلقاً عظيماً من الأسطول الإسـلامي وذلـك في السـابـع والعشـرين من شـوال سنـة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م. ولما علم السلطان ما تمَّ على المسلمين ضاق صدره وكان قد حل الشتاء وتراكمت الأمطار وامتنع الناس من القتال لشدة المطر، فجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر جزءاً من الراحة ويستعدوا لهذا الأمر استعداداً جديداً فرأى ذلك رأياً ورحل عنها بعد أن رمى المنجيقات وسيّرها وأحرق ما لا يمكن نقله وأقام هو مع جماعة من خواجة بعكا حتى دخلت سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م.

وفضلاً عمن احتشد في صور من الفرنج النازحين إليها من مختلف المدن فإن نجدات قوية وصلت إليها من أوروبا لا سيما وإن سقوط القدس كان له أبعد الأثر في الأوروبيين الذين تدفقت

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية أخبار سنة ٥٨٣ هـ ص ٦٠.

نجداتهم على صور عابرة إليها البحر من كل مكان مما شجع الفرنج في صور من الدفاع إلى الهجوم باتجاه صيدا[1] ولكن القوى الأخرى كانت تحسب لهذا الأمر فكانت أن تركت قطعات كبيرة مقابل صور، ويبدو أن الإفرنج استطاعوا قطع الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا (وهو جسر الليطاني) فركب السلطان لملاقاتهم وقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجرحوا أضعاف ما قتلوا وفشلوا في الوصول إلى صيدا حين قاتلهم المرابطون على طريقها والقادمون من تبنين فارتدوا إلى صور مندفعين إلى الجسر، ويظهر أن قوة كبيرة كانت تسد عليهم منافذ الجسر فانحصروا بين قوتين على الجسر مما أدى إلى تساقطهم بالماء.

استمر المسلمون بضرب أسوار صور بالمنجنيقات المتواصلة وأثقلوا أحجارها حتى خلخلوا صور البلد وأضعفوا بنيانه وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم حتى إن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلاً لا ليلاً ولا نهاراً، واقتنع الفرنج بتخلخل السور وضعفه وتقلقل بنيانه. ولما أحسّ العدو بذلك شرعوا في الزحف من كل جانب وانقسموا أقساماً وتناوبوا فرقاً كلما تعب قسم استراح وقام غيره مقامه. وطاف السلطان الملك العادل يحث الناس على الجهاد قائلاً: «يا للإسلام» ثم اشتد في الزحف على القتال، وفي اليوم التالي وصلت رسالة من داخل المدينة تقول: «إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ونحن في الغد

(١) حسن الأمين، جبل عامل بين الاحتلال والجلاء مجلة العرفان ١٩٦٨ ص ٤٦٠.

إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا» وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم. واشتد الزحف في ذلك اليوم ووقف الرجالة من الإفرنج كالسور المحكم البناء بالسلاح والنشاب من وراء أسوارهم وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب. ولقد صعد أحد الفرنجة سور خندقهم واستدبر للمسلمين وإلى جانبه جماعة يناولونه للحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور خندقهم وإنه تلقى زهاء خمسين سهماً وحجراً ولا يمنعه عمّا هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه زراق مسلم بقارورة نفط فأحرقه. واستمر القتال بين الطرفين حتى فصل الليل بينهما.

واشتد ضعف البلد وكثرت ثغر سوره وجاهد المقيمون فيه من المسلمين وبنوا سوراً من داخلها حتى إذا تمَّ انهدامها قاتلوا عليه واشتد ثبات الفرنج على أنهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد أماناً حتى يطلق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين وتعاد البلاد الساحلية إليهم. وبذل لهم تسليم البلد دون من فيه فلم يفعلوا وبذل لهم مقابل كل واحد من الذين في البلد واحداً من أسراهم مقابله فلم يفعلوا وبذل لهم أيضاً صليب الصلبوت فلم يفعلوا واشتد عتوهم واستفحل أمرهم وضاقت الحيل عنهم ومكروا[1].

ولما كان يوم الجمعة ١٧ جمادى الثاني ٥٨٧ هـ وردت المعلومات أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وكثرت الثغر وعجزوا عن الحفظ والدفع ورأوا عين الهلاك وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية ص ١٣٣ ـ ١٣٨.

أعناقهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والمراكب، فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي ألف دينار وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم وصليب الصلبوت على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم وضمنوا للمركيس عشرة آلاف دينار ولأصحابه أربعة آلاف دينار واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج[1].

وهكذا خرج الصليبيون من مدينة صور وعادت للمسلمين بعد تحريرها وبعدما شهد جسر الليطاني (القاسمية) أهم معاركها وظلت صور منيعة وظل المركيس يصول ويجول فيها مهدداً متوعداً إلى أن تقدم منه اثنان من الإسماعيلين يتنكران بزي الرهبان واغتالاه سنة ٥٨٨ هـ وانتخب الصليبيون خلفاً له هنري دي شامبين الثاني[2]. وإذا كان الفرنج قد عجزوا عن التوجه إلى الشمال في محاولة لاسترجاع صيدا فإنهم كرروا المحاولة باتجاه الجنوب لاسترجاع عكا. ووصل نفر منهم إلى النواقير ونزل بالإسكندرونة في إحدى هذه المحاولات سنة ٥٨٥ هـ[3] هذا مع العلم أن الحد الجنوبي لجبل عامل المعروف اليوم باسم الناقورة كان معروفاً باسم النواقير.

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية ص ١٣٨.
(٢) محمد علي مكي، تاريخ لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ١٨٣.
(٣) حسن الأمين، جبل عامل بين الاحتلال والجلاء. مجلة العرفان ١٩٦٨ ص ٤٦١.

وفي وقعة الكمين (بين المسلمين والفرنج) في مدينة صور سنة ١١٨٩ م يقول ابن الأثير[1]: لما عاد صلاح الدين إلى العسكر أتاه خبر أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبددين، فكتب إلى من بعكا من العسكر وواعدهم يوم الاثنين ثامن جمادي الآخرة سنة ٥٨٥ هـ ليلاقوهـم من الجانبين، ورتب كمناء في موضع من تلك الأودية والشعاب واختار جماعة من شجعان عسكره وأمرهم بالتعرض للفرنج وأمرهم أنهم إذا حمل عليهم الفرنـج قاتلوهم شيئاً من قتال ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم، فإذا تبعهم الفرنج استجروهم إلى أن يجوزوا موضع الكمين ثم يعطفوا عليهم ويخرج الكمين من خلفهم. ولما التقت الفئة المولجة بجر الفرنج إلى الكمين، أنف الفرسان أن يظهر عنهم الهزيمة وبدلاً من الانهزام أمامهم ثبتوا فقاتلوهم، واشتد القتال وعظم الأمر ودامت الحرب حتى طال على الكمناء الانتظار فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكامنهم نحوهم مسرعين... فأتوهم وهم في شدة الحرب فازداد الأمر شدة على شدة، وكان منهم أربعة أمراء من ربيعة وطي وكانـوا يجهلون تلك الأرض، فلم يسلكوا مسلك أصحابهم فسلكوا الوادي ظناً منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين فلما رآهم الفرنج بالوادي علموا أنهم جاهلون فأتوهم وقتلوهم. ويذكر أن أحد مماليك صلاح الدين الذي أثخن بالجراح فظنه الفرنج قد قتل فتركوه وقد وجده المسلمون في اليوم التالي عندما جاؤوا إلى موضع القتال فعولج وشفي ثم كان بعد ذلك لا يحضر مشهداً إلا وكان له فيه الأثر العظيم.

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١٢ أخبار سنة ٥٨٥ هـ.

ج ـ سقوط قلعة هونين:

وقلعة هونين التي تسلمها جوسلين الثاني ١١٨٢م حاصرها صلاح الدين الأيوبي برفقة قائده دلدروم الباروقي والتي خاطب أهلها قائلاً: أنتم بين حصنين تبنين وبانياس... وإذا أبيتم التسليم عدمتكم سلامتكم وأتممتم قيامتكم.. وما زال فيهم حتى أخذوا الأمان على أن يذهبوا، وتسلمت هونين بما فيها من عدة وذخيرة وتسلمها بيرم أخو صاحب بانياس سنة ١١٨٧م/٥٨٣هـ.

ويورد الأصفهاني[١] الذي كان مرافقاً لصلاح الدين في حصاره لهونين وضع سكانها بعد الحصار كما يلي: ورد الخبر عن هونين أنها هانت ودنا أمرها ودانت وحاول أهلها كسب الوقت وطلبوا مهلة قبل أن يستسلموا وقالوا أمهلونا حتى نعلم ما يكون من أمر صور[٢]... فإن أخذتموها أخذتم هذه... ونحن نجعل على هذا عدة من الأصحاب مرهونين. إلا أن قائد صلاح الدين لم يستجب لطلب أهالي هونين وتمّ السيطرة عليها في نهاية عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ. واختلف المؤرخون فيمن استلمها فابن شداد الذي كان مرافقاً لصلاح الدين قال: إن صلاح الدين سلّمها إلى مجد الدين أحمد شقيق فخر الدين جراكس بينما الأصفهاني قال أنه سلّمها إلى بيرم (أخو صاحب بانياس).

د ـ سقوط صفد بيد صلاح الدين:

أورد ابن شداد[٣] أن صلاح الدين سار في أوائل رمضان سنة

(١) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي ص ١٠١.
(٢) يذكر أن صور كانت محاصرة في نفس الوقت لمحاصرة هونين.
(٣) ابن شداد، النوادر السلطانية أخبار سنة ٥٨٤ ص ٧١.

٥٨٤هـ/١١٨٨م من دمشق يريد استعادة صفد من الصليبيين، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان فيجتمع فيه بأهله «اللهم إنه احتمل ذلك ابتغاء مرضاتك فآته أجراً عظيماً»، فسار حتى أتى صفد، وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها فأحدق العسكر بها ونصب عليها المناجيق، وسلم كل منجنيق إلى قوم ورسله تتواتر إليهم يعرفونهم كيف يصنعون حتى أتى الصباح وقد فرغت المنجنيقات ولم يبقَ إلا تركيب جنازيرها فيها واستمر القتال على صفد متواصلاً مع شهر رمضان حتى سلّمت بالأمان في ١٤ شوال سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م. وتابع طريقه حتى وصل إلى دمشق وأقام بها ثلاثة أيام في ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩.

هـ ـ محاصرة قلعة الشقيف[1]:

جدّد صلاح الدين عزمه على قصد شقيف أرنون، وهو موضع حصين قريب من بانياس، فسار من دمشق حتى نزل بانياس متابعاً طريقه حتى وصوله إلى مرجعيون في ١٧ ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م وخيّم هناك بالقرب من قلعة الشقيف والعساكر تجتمع حوله وتطلبه من كل صوب وحدب وأقام أياماً يشرف فيها على هذه القلعة والعساكر الإسلامية تصبح متزايدة العدد والعُدد. وصاحب الشقيف الصليبي يرى ما يتيقن معه عدم السلامة فرأى أن إصلاح الحال مع صلاح الدين أفضل إلى سلامته فنزل بنفسه

---

(١) قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل ياقوت. معجم البلدان ج ٣ ص ٣٥٦.

من القلعة وما أحس صلاح الدين إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه وكان من كبار الإفرنجية وعقلائها[1] وكان يعرف العربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث وكان عنده رجل مسلم يقرأ له ويفهمه، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر له أنه مملوك وأنه تحت طاعته وأنه يسلم المكان إليه من غير تعب واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه في دمشق، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الإفرنج وإقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله وأن يمكن من الإقامة بموضعه وهو يتردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته في صور ويأخذ مغل هذه السنة، فأجيب إلى ذلك كله وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت[2]. ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيله، غير صادق في ذلك، وإنما قصد به تدفيع الزمان وظهر لذلك مخائل كثيرة من الحرص في تحصيل المسيرة وإتقان الأبواب وغير ذلك فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويكون بمرأى منه ما يمنع من دخول نجدة وميرة وأظهر أن سبب ذلك شدة الحرارة في المرج والفرار من وخمة وكان انتقاله إلى سطح الجبل ليلاً فلما أصبح صاحب الشقيف إلا والخيمة مضروبة، وبقي بعض العساكر بالمرج على حاله، فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه، وعلم أنه بقي من المدة بقية شهر حدثته نفسه أنه ينزل إلى خدمة السلطان ويستعطفه ويستزيده في المدة،

(١) هو ارناط صاحب صيدا ابن شداد. النوادر السلطانية ص ٧٢.
(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية أخبار سنة ٥٨٥ هـ ص ٧٢.

وتخايل له ـ بما رأى من أخلاق السلطان ولطافته أن ذلك يتم فنزل إلى الخدمة وعرض المكان وقال: «المدة لم يبق منها إلا اليسير، وأي فرق بين التسليم اليوم أو غداً» ومن المصلحة أن يبعث السلطان من يتسلم المكان وأظهر أنه بقي من أهله جماعة بصور وأنهم عازمون على الخروج منها في هذه الأيام. وأقام في الخدمة ذلك اليوم إلى الليل وعاد صاعداً إلى القلعة ولم يظهر السلطان شيئاً وأجراه على قاعدته ومقتضى مدته ثم عاد ونزل بعد أيام وقد قرب انتهاء المدة والفراغ منها. وطلب الخلوة بالسلطان وسأل أن يمهله تمام السنة تسعة أشهر فأحسّ السلطان منه الغدر فماطله وما آيسه وقال: «نتفكر في ذلك ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم، وما ينفصل الحال عليه نعرفك» وضرب له خيمة قريبة من خيمته وأقام عليه حرساً لا يشعر بهم وهو على غاية من الإكرام والاحترام له والمراجعة والمراسلة بينهم مستمرة حتى انقضت الأيام وطولب بتسليم المكان فكشف له أنك أضمرت الغدر[1] وجددت في المكان عمائر، وحملت إليه ذخائر، فأنكر ذلك واستقرت القاعدة على أن ينفذ من عنده ثقته وينفذ السلطان ثقة ليتسلم المكان وينظر هل تجدد فيه شيء من البناء أم لا فمضوا إليه فلم يلتفت أصحابه المقيمون فيه إليهم ووجدوه قد جدّد باباً للسور لم يكن فأقيم الحرس الشديد عليه وأظهر ذلك ومنع من الدخول إلى الخدمة وقيل له: «قد انقضت المدة ولا بدّ من التسليم» وهو يغالط عن ذلك ويدافع عن الجواب عنه ثم عاد وأنفذ إليهم صاحبه يأمرهم بالتسليم فأظهروا له العصيان عليه وقالوا: نحن نواب

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية ص ٧٧ ـ ٧٨.

المسيح لا نوابك فاحتيط على الحصن وأقيم عليه من خارجه جدار يحفظ الداخل إليه والخارج منه.

ولما كان نهار الأحد الثامن عشر من جمادي الثاني سنة ٥٨٥ هـ وفيها اعترف هو بانتهاء المدة فأركب بغلة وسار وقال: أنا أمضي وأسلم المكان، وسار معه جمع كثير من الأمراء والأجناد حتى أتى الشقيف وأمرهم بالتسليم فأبوا وطلب منهم قسيساً فخرج إليه وحدّثه بلسانه ثم عاد واشتد امتناعهم بعد عودة القسيس إليهم فظن أنه أكدً الوصية على القسيس في الامتناع وأقام ذلك اليوم والحديث يتردد فلم يلتفتوا وأعيد إلى المخيم المنصور وسير من ليلته إلى بانياس وأحيط عليه بقلعتها وأحدق العسكر بالشقيف مقاتلين ومحاصرين وأقام صاحب الشقيف ببانياس إلى سادس رجب واشتد حنق السلطان على صاحب الشقيف بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره، ولم يعملوا فيها شيئاً فأحضر إلى المخيم وهدّد ليلة وصوله بأمور عظيمة فلم يفعل. وأصبح السلطان صبيحة الأربعاء الثامن من رجب ورقي إلى سنام الجبل بخيمه وهو موضع مشرف على الشقيف من المكان الذي كان فيه أولاً وأبعد من الوخم وكان قد تغيّر مزاجه[1].

ولما كان يوم الأحد ١٥ ربيع الأول سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠ م علم الفرنج المستحفظون في قلعة الشقيف أنه لا عاصم لهم من أمر الله وأنهم إن أخذوا عنوة ضربت رقابهم فطلبوا الأمان، وجرت مراجعات كثيرة في قاعدة الأمان وكانوا قد علموا من حال صاحبهم

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية ص ٧٧ - ٧٨ - ٧٩.

أنه قد عُذِّب أشد العذاب فاستقرت القاعدة على أن الشقيف يسلم ويطلق صاحبه وجميع من فيه من الفرنج ويترك ما فيه من أنواع الأموال والذخائر فتسلم في التاريخ المذكور[1].

وعاد صاحب صيدا والفرنج الذين كانوا في قلعة الشقيف إلى صور، ولما رأى السلطان اهتمام الفرنج من أقطار بلادهم بالمكان وتصويب سهام عزائمهم نحوه اغتنم الشتاء وانقطاع البحر وحصّل في عكا من الميرة والذخائر العدد والرجال ما أمن معه عليها، وتقدم حتى دخل عكا مكايدة للعدو مراغمة له وأعطى العساكر دستوراً في تلك السنة طول الشتاء ليستحموا ويستريحوا وأقام هو مع نفر يسير قبالة العدو، ولما بلغ الخبر العدو قصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرجعيون وشاورهم فيما يضع وكان رأيه أنه قال: «المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد، وإلا إن نزلوا جعلوا الرجّالة سوراً لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول إليهم، وخيف على البلد منهم» كانت إشارة الجماعة: «إنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد» وبقي السلطان مجداً في الإنفاذ إلى عكا بالميرة والعدد والأسلحة والرجال حتى انقضى الشتاء وانفتح البحر وحان زمن القتال فكتب إلى العساكر يستدعيها من الأطراف، ولما تواصل أوائل العساكر وقوي جيش الإسلام، رحل السلطان نحو العدو ورتّب العسكر قلباً وميمنة وميسرة وكان أول الميمنة ولده الملك الأفضل وأخذت العساكر في التواصل والنجدة في التواتر. وفي ١٦ ربيع الأول سنة ٥٨٦ هـ علم

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية.

السلطان أن الفرنج زحفوا على البلد وضايقوه فركب إليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد وقاتلهم قتالاً شديداً إلى أن حلّ الليل وعاد كل فريق إلى أصحابه ورأى السلطان قوة العساكر الإسلامية، وبُعد المكان عن العدو فجدّد الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول وعبّأ العساكر تعبئة القتال وزحف إلى العدو ليشغله عن ذلك وفي ١٧ ربيع الأول سنة ٥٨٦ هـ وصل ولده الملك الظاهر ـ غياث الدين غازي ـ صاحب حلب والتقى والده في مرجعيون وسار بجيشه حتى وقف بالقرب من العدو وفي أواخر نفس اليوم قدم مظفر الدين زين الدين مسارعاً للخدمة ثم عاد إلى عسكره وسار بهم السلطان حتى وقف بهم على العدو. وكانت تضرب لهم الخيام حيث يأمر السلطان وينزلون بها مكرمين[١].

و ـ الهدنة (بين صلاح الدين والصليبيين):

وفي ٢ أيلول سنة ١١٩٢ م أي ما يعادل ٢١ شعبان ٥٨٨ هـ عقد صلاح الدين الهدنة مع الصليبيين التي حددت مدتها لثلاث سنوات وثلاثة أشهر[٢] إلا أنها أصبحت هدنة دائمة. فقد جددها بعد صلاح الدين ولده عثمان. وكانت هذه الهدنة فاتحة بلاء وشر

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية ص ٩٠ ـ ٩١.

(٢) محمد علي مكي، تاريخ لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص ١٨٣.

أدى في النهاية إلى ضياع ثمرات النصر الذي تحققت من قبل فضلاً عما سلمته للصليبيين من بلاد سلماً بدون قتال فقد سلمهم صلاح الدين بموجبها حيفا وقيسارية ونصف اللد ونصف الرملة وغير ذلك من البلاد. وصار للصليبيين من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور على أن القسم الداخلي من جبل عامل نجا مؤقتاً من شرور هذه الهدنة فلم يكن من نصيب الصليبيين.

ثم توفي صلاح الدين في ٤ آذار ١١٩٣ م وله من العمر ٥٨ سنة وكان قد قسم البلاد بين أولاده وأقاربه، فكان جبل عامل من نصيب ولده الأفضل. وقد أضعف هذا التقسيم البلاد ومزّق قواها فلم تستطع الصمود أمام الإفرنج وصارت تلك الانتصارات كأنها لم تكن وقد استغل الصليبيون تفسخ الأيوبيين فتوسعوا في بعض المناطق واستعادوا مدينة بيروت ولم تدم الاتفاقية التي قامت بين صلاح الدين وريكاردوس سوى خمس سنوات فقط حتى سنة ١١٩٧ م، وبعدها دخلت البلاد في دوامة من الفوضى والحروب بين الصليبيين والمسلمين وبين الصليبيين فيما بينهم وبين المسلمين فيما بينهم[1].

ز - جبل عامل يتبع دمشق:

ولسنا الآن بصدد تاريخ الحروب الصليبية وإنما الذي يهمنا هو أن القسم الداخلي من جبل عامل كان عند وفاة صلاح الدين من نصيب ولده الأفضل الذي كانت عاصمته دمشق ثم من نصيب من تتابعوا بعده على دمشق من الأيوبيين. وكان الانقسام الأيوبي من

---

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ١٨٦.

العوامل التي أدت إلى تنشيط الصليبيين وتوحيد صفوفهم وتأثر المسلمين. فتمكن الملك العادل إبعاد أولاد أخيه وسيطرته على مصر والشام وبذلك أعاد الوحدة إلى صفوف المسلمين منذ سنة ١٢٠٠ م وذلك بعد أن مهّد لعمله بالاتفاق مع الصليبيين سنة ١١٩٨ م فقد تخلى نهائياً عن بيروت وجبيل كما أعطاهم مدينة صيدا مناصفة بالإضافة إلى الساحل من صور إلى شمالي يافا، لأن مدينة يافا بقيت بيده(١).

وساد البلاد جو من الهدوء الحذر بين المسلمين والصليبيين لأن الأخبار وصلت من أوروبا بتهيئة حملة صليبية واسعة لتسترد بيت المقدس فكان الهدوء الحذر من الجانبين بانتظار وصول الحملة ولكن هذه الحملة استهدفت سنة ١٢٠٤ م القسطنطينية وقضى الصليبيون على الدولة البيزنطية وساعد ذلك على وضع اتفاقية جديدة بين المسلمين والصليبيين فقد عقدت اتفاقية بين الملك العادل وآموري دي لوزينيان على إعطاء يافا وصيدا والناصرة واللد والرملة للصليبيين وعرفت هذه الاتفاقية باتفاقية يافا، وبهذه الاتفاقية أصبح الساحل اللبناني بكامله تحت سيطرة الصليبيين من جديد. ولم يلبث الملك آموري أن توفي إثر هذه الاتفاقية فانقسم الصليبيون مجدداً إلى دولتين في قبرص وفي الساحل اللبناني الفلسطيني. واستلم أمير بيروت الصليبي جان دبلين Jean D'Ebelin الوصاية على مملكة عكا الصليبية «كانت الوريثة هي ماري ابنة أخته» وبقيت هذه الوصاية حتى سنة ١٢١٠ م حين تزوجت الوريثة ماري من الأمير جان دي

---

(١) المقريزي، السلوك ج ١ ص ١٤١.

بريز الفرنسي. أما في الجانب الإسلامي فقد قسّم السلطان العادل مملكته بين أولاده فجعل مصر بيد الملك الكامل ودمشق بيد المعظم. وسرعان ما عاد الخلاف يظهر بين أولاد السلطان العادل وظهرت محالفات إسلامية صليبية متعددة وكان كل من الملكين يعمل لجمع مصر وبلاد الشام بيده بالرغم من وجود والدهما السلطان الملك العادل(١).

ولقد تميزت الفترة الواقعة بين سنتي ١١٩٨ م - ١٢١٦ م (نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر) بالهدوء والسلم بين الطرفين ذلك أنهما كانا بحاجة إلى مزيد من الاستقرار لدعم الأوضاع الداخلية في مناطقهما، لأن الفرنج كانوا يعانون الأزمة النفسية بعد موقعة حطين وهزيمتهم والأيوبيون كانوا يعيشون فترة تفسخ واضطراب نتيجة الصراع على الحكم.

ونتيجة لذلك عقد الطرفان الإسلامي والصليبي هدنة سنة ١١٩٨ م مدتها ثلاث سنوات اعترفت باحتلال بعض المناطق الجديدة كبيروت وجبيل، ثم عقدت هدنة أخرى بين الملك العادل والملك آموري مدتها ست سنوات (١٢٠٤ م) وفيها أعطى العادل للفرنج نصف صيدا واللد والرملة وكل يافا. إضافة إلى منطقة الساحل التي كانت بأيديهم، وبعد فترة قصيرة من الهدنة توفي آموري وزوجته إيزابيل إلا أن خلافاً نشأ حول هذه الهدنة بسبب أن فرقة الداويه وعدد كبير من الأحبار رغبوا في متابعة الحرب من

---

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ١٨٨ - ١٨٩.

أجل استعادة أورشليم، لكن العادل قام بتهديد عكا فاضطر هؤلاء إلى الإذعان والموافقة على الهدنة الجديدة.

وهكذا فإن الأمير جان دي برين لم يؤثر في العلاقات الإسلامية الصليبية لأنه اعتمد سياسة معتدلة وحافظ على الاتفاقات المعقودة بين صليبيي الجنوب والدولة الأيوبية لكن البابا هونوريوس الثالث دعا إلى حملة صليبية جديدة لاستعادة بيت المقدس وقد تألفت هذه الحملة (الحملة الخامسة) بزعامة ملك هنغاريا (أندره الثاني) وأمير النمسا (ليوبولد السادس) سنة ١٢١٧ م ووصلت إلى عكا وحاولت التوسع بقصد الاستيلاء على القدس وبدأت حملة تقتيل ونهب ضخمة في المناطق الإسلامية. لكن السلطان العادل تحرك لمجابهة الموقف وذلك بعدما اجتاح الصليبيون منطقة جبل عامل ومنطقة الجليل وأوقعوا في القرى والمناطق الإسلامية خسائر كبيرة[١]. ويقول المقريزي[٢]: تتابعت المدد على الفرنج من روما إلى عكا وزحفوا بمجموعهم إلى بيسان فانتهبوها.. وأسروا وغنموا ما يجل وصفه.. ثم أغاروا ثانية ونهبوا صيدا والشقيف ورجعوا وذلك من نصف رمضان إلى يوم الفطر.

وأمام تدفق الفرنجة على عكا. قرر جان دي برين أن يهاجم بهذه القوات مصر وبالفعل توجهت من عكا حملة صليبية بحرية نزلت عند دمياط ٢٧ أيار سنة ١٢١٨ م وضربت الحصار على المدينة ثم تمكن الصليبيون من احتلالها وحاولوا التوجه نحو القاهرة.

---

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ١٨٩.
(٢) المقريزي، السلوك ص ١٨٦ أخبار سنة ٦١٤ هـ.

ولكي يرفع الملك المعظم الضغط عن أخيه الكامل في مصر قام باجتياح مناطق الفرنج في بلاد الشام ثم أمر بتدمير عدد من القلاع والحصون خوفاً من إفادة الفرنج بها في حال عودتهم إليها وخاصة قلعتي هونين وتبنين الهامتين. وتدمير تبنين يعود إلى أهميتها العسكرية المتميزة بوقوعها في وسط منطقة جبل عامل.

أما الحملة على مصر فكانت فاشلة بسبب الخلاف الذي قام بين الفرنج وممثل البابا حول دمياط فعاد الملك جان دي برين إلى عكا في آذار سنة ١٢٢٠ م.

وقد توفي الملك العادل خلال تلك الفترة (آب سنة ١٢١٨ م).

وكان الكامل عندما رأى أن الفرنج يتقدمون في مصر إثر احتلالهم لدمياط (١٢١٩ م) تقدم منهم بعرض للصلح مقابل إخلائهم دمياط، وكان الفرنج يرفضون ثم تقدم منهم للمرة الثالثة بعرض لإعطائهم القدس وعسقلان وطبريا وصيدا وجبلة واللاذقية مع عدد من القلاع منها تبنين التي عرض تجديد بناءها على حسابه. وصفد وشقيف أرنون وبانياس كل ذلك مقابل إخلاء الأراضي المصرية، لكن الفرنج لم يوافقوا وزاد طمعهم ورفضوا عرض الكامل فقام هذا الأخير بتجريد حملة ضخمة على الفرنج في مصر أجبرتهم على طلب الهدنة دون شرط وفي ذلك يقول المقريزي[١]: إن الفرنج فرضوا شروطاً قاسية للصلح قبلها الكامل لكن الفرنج طمعوا أكثر فقامت الحرب واستطاع المسلمون حصار الفرنج وكسب معركة

---

(١) المقريزي، السلوك أخبار سنة ٦١٨ هـ.

بحرية عليهم فبعثوا إلى الكامل وإخوته يطلبون الأمان ويسلمون دمياط دون شرط.

ولقد استطاع الفرنج احتلال القدس بعملية خيانة لا مثيل لها إذ إن الكامل والأشرف ولدي العادل ابني أخ صلاح الدين وبرسائل بينهما وبين فردريك أمبراطور ألمانيا اتفقوا على تسليمه القدس وما حولها وهكذا عادت القدس خاضعة للاحتلال الأجنبي وتسلمها الصليبيون غنيمة سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٧م وكان من نتيجة ذلك أن نقم المسلمون على الملك الكامل وسياسته لدرجة أن بعضهم فضّل التعامل مع الصليبين على التعامل معه[١]. وفي ذلك يقول ابن الأثير[٢]: وكانت عساكره (الأمبراطور فردريك) قد سبقته ونزلوا بالساحل وأفسدوا فيما يجاورهم من بلاد المسلمين ومضى إليهم وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم وصاروا معهم».

وعندما وطئت قدما فريدريك أرض عكا باشر المفاوضات مع الكامل سلطان مصر من أجل استعادة القدس، لكن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة عبر ممثليه فيها باليان دوساجيت وتوما الأكويني. وفي العام التالي سنة ١٢٢٩ م اضطر فردريك للعودة إلى أوروبا بعد مهاجمة البابا لأراضيه فعقد صلحاً مع المسلمين بعد نجاح المفاوضات والتي بموجب هذا الصلح أعيد للفرنج قسم هام من

---

(١) حسن الأمين، جبل عامل بين الاحتلال والجلاء. مجلة العرفان ١٩٦٨ ص ٤٦٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل ج ١٢ ص ٤٨٢.

مملكة القدس شملت بيت لحم والناصرة وإمارة تبنين والنصف الآخر من صيدا والرملة واللد وقيصرية ويافا وبذلك تمّ توحيد إمارة صيدا من جديد وأعطيت إلى وريثتها باليان دوساجيت بعد اثنتين وأربعين سنة من وقوعها بيد المسلمين بعد موقعة حطين سنة ١١٨٧ م.

وبعد شهرين من عقد معاهدة فريدريك الثاني مع المسلمين أعيد حصن تبنين إلى وريثة الإمارة وتدعى Alix D'Armonie وهي ابنة أخت أونفروا الرابع الأمير السابق للإمارة.

أما في الوسط الصليبي فنشأ خلاف قوي بين مؤيدي الأمبراطور فريدريك الثاني من جهة ومؤيدي البابوية واستقلال الصليبيين في الشرق من جهة ثانية وتزعم حركة المعارضة ضد الأمبراطور جان دي إبلين الذي ذهب من عكا إلى قبرص وانتزعها من جماعة الأمبراطور فوّجه الأمبراطور فريدريك حملة انتزعت بيروت وصيدا وصور وعكا من أيدي المعارضة الصليبية وعين الأمبراطور على الشرق قائداً من قواده هو المرشال فلانجياري[١] الذي جعل مركزه في صور حيث أساء التصرف مع النبلاء الفرنج وانتهى الأمر بطرد ممثلي الأمبراطور من صور عام ١٢٤٣ م.

وهكذا أصبح الوضع مضطرباً في الوسط الصليبي والوسط الإسلامي وتناسى الصليبيون صراعهم مع المسلمين ومطلبهم في الأراضي المقدسة وانهمكوا في صراعات سياسية واقتصادية خاصة وأن المسلمين تناسوا وجود أعدائهم في السواحل وفي المدن المقدسة وانهمكوا في محاربة بعضهم البعض[٢].

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ١٩٢
(٢) نفس المرجع ص ١٩٢.

وفي سنة ١٢٣٨ م توفي الملك الكامل فعادت الخلافات في البيت الأيوبي بين أولاد الكامل وإخوته وابتدأت المؤامرات بين الأمراء الأيوبيين ضد بعضهم البعض إثر ذلك وتلبية لنداء البابا قام الأمراء الفرنسيون في أيلول سنة ١٢٣٩ م بحملة صليبية جديدة. فكان جواب الأيوبيين أن عمد ملك الأردن الملك الناصر داوود الأيوبي إلى احتلال القدس وحاول الصليبيون الزحف إلى مصر فهزمهم المصريون في غزة. وسرعان ما تفاهم الصليبيون مع الملك الصالح إسماعيل ملك دمشق ضد الملك الصالح أيوب وذلك لقاء إعطاء الصليبيين القدس وعسقلان وقلعة الشقيف وصفد ومناصفة صيدا وطبريا وأعمالها وجبل عامل وسائر بلاد السواحل[1] غير أن هذا الاتفاق مع الفرنج قد أثار الاستياء في صفوف المسلمين في دمشق فقامت عدة فرق عسكرية بالانضمام إلى جند الصالح نجم الدين أيوب في مصر تعبيراً عن رفضها كما رفضت حامية قلعة الشقيف تسليم القلعة إلى الصليبيين. مما اضطر الملك الصالح إسماعيل إلى احتلالها وتسليمها إلى الفرنج وفي ذلك يقول ابن شداد: ولما أمر نائبه فيه بتسليمه للفرنج أبى وامتنع وقال: والله لا جعلته في صحيفتي فسار إليه وضربه حتى قتله واستأصل ماله وهو الحاج موسى..»[2].

ح - خيانة الملك الصالح عجل بتسليم قلعة الشقيف سنة ٦٣٨ هـ:

يقول الشيخ علي الزين[3] نقلاً عن صاحب الخطط: «وكان قد

---

(١) المقريزي، السلوك ص ٣٠٣.

(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة ص ١٥٤ مادة شقيف أرنون.

(٣) علي الزين، من الحوادث العاملية ص ٩٥٨.

قوي خوف الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر فسلم الملك الصالح إسماعيل صفد والشقيف إلى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن أخيه صاحب مصر مما لم يعهد له مثيل في تاريخ بني أيوب حتى الآن اللهم ما كان من مفاوضة الكامل صاحب مصر لملك الإفرنج سنة ٦٢٤ هـ ووعده له بإعطائه القدس ويقول الدويهي وفي سنة ٦٤٣ هـ وهب الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق قلعة الشقيف للفرنج ليؤازروه فأنكر عليه ابن عبد السلام خطيب دمشق وأبو عمر الحاجب المالكي فعزلهما وحبسهما بالقلعة(١).

وسرعان ما عمد الصالح أيوب ملك مصر إلى الاعتراف بملكية الصليبيين لشقيف أرنون وإقليم الجليل وحصن تبنين وهونين وطبريه... وقد سبب هذا التنازل الأيوبي عن المناطق المذكورة للصليبيين ضجة كبيرة في الأوساط الإسلامية وتدهورت سمعة الأيوبيين ومكانتهم.

وبينما كان الصليبيون في صراعاتهم الداخلية وبخاصة ما بين فرسان الداوية Templiers وفرسان الأسبتارية Hospitaliers إذا بالملك الصالح أيوب يتفق سراً مع الفرسان الخوارزميين في شمالي الجزيرة من سوريا فيغيرون فجأة على القدس وينتزعونها من أيدي الصليبيين في ١١ تموز سنة ١٢٤٤ م وكان هذا العمل مفاجأة قوية لدرجة أنه سبب تحالفاً عسكرياً بين الصليبيين والملوك الأيوبيين في حمص ودمشق والأردن ضد الصالح أيوب والخوارزميين وبذلك

(١) تاريخ الأزمنة ص ١١٩.

يكون الصالح أيوب قد تمكن من تحقيق وحدة مصر وسوريا بيده مما جعله يشكل خطراً على الصليبيين فكان لا بد في نظر الصليبيين من حملة صليبية جديدة لإنقاذ الأوضاع فكانت حملة لويس التاسع ملك فرنسا وهي المعروفة بالحملة السابعة ولكن هذه الحملة فشلت وأسر الجيش الصليبي وأسر الملك أيضاً وخلال هذه الحملة على مصر توفي الملك الصالح أيوب فخلفه ابنه طوران شاه ولكنه قتل على أيدي مماليكه في ٢ أيار سنة ١٢٥٠ م وبذلك انتهى الحكم الأيوبي في مصر وفشلت الحملة الفرنسية أيضاً[١].

وعاد لويس التاسع بعد دفع فدية كبيرة للماليك لقاء إطلاق سراحه إلى فلسطين ولبنان لتنظيم شؤون الصليبيين وتوحيدهم أمام خطر المماليك، وبينما كانت الاضطرابات الدموية والفوضى الاجتماعية والاقتصادية مستمرة في أوساط الصليبيين والأيوبيين كان المغول بقيادة هولاكو يجتاحون العراق ويدمرون بغداد ثم يغيرون على حلب وبظهورهم ظهرت قوة جديدة تلعب دورها إلى جانب الصليبيين والأيوبيين وقد حالف المغول المسيحيون الشرقيون والأرمن واجتاح هذا الحلف المغولي ـ الأرمني ـ المسيحي الشرقي الصليبي بلاد الشام فأسرع الأيوبيون يستسلمون للمغول خوفاً منهم ويحالفونهم «ملك حماه وملك حمص» وهرب الناصر يوسف الأيوبي من دمشق فسقطت في أيدي الحلف المذكور وكذلك احتل هذا الحلف بعلبك وخرّبها[٢] واندفع المغول جنوباً فوصلت مقدمتهم إلى غزة تمهيداً للهجوم على مصر ولكن صليبيي صيدا رفضوا التفاهم

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ١٩٦.
(٢) المقريزي، السلوك ج ١ ص ٤٢٦.

والتعاون مع المغول واندفعوا يهاجمون المغول في مرجعيون وبانياس وفي سنة ٦٥٨ هـ استولى التتار على صيدا من بلاد الفرنج ونهبوها وأسروا منها ثلاثمائة أسير[١] وعاث التتار في البلاد تخريباً يدمرون الأسوار ويحرقون الدور وهرب جوليان صاحب صيدا منها في سفينة جنويه عن طريق البحر كما هاجمهم «أي المغول» صليبيو عكار وبيروت وجبيل وفرسان الداوية في منطقة الجليل ولكنهم هزموا وخسروا بهجماتهم.

أما مماليك مصر فقد تحالفوا مع الصليبيين في فلسطين ولبنان ضد المغول وسمح الصليبيون للمماليك بالمرور عبر فلسطين. فعبر المماليك بقيادة قطز وبيبرس سواحل عكا وتلقوا الهدايا من الصليبيين وانتصر المماليك على المغول في موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ م حين دمرت قوة المغول وقتل قائدهم كتغا[٢].

وكانت النتيجة الفورية لهذا الانتصار الهائل تراجع المغول عن سوريا وسقوط دمشق بيد المماليك وتوحيد سوريا ومصر مجدداً. وقيام سلطنة المماليك في مصر والشام على أنقاض الأيوبيين لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع المملوكي الصليبي الذي انتهى بتصفية الحكم الصليبي في الشرق.

ط ـ بيبرس يحاول القضاء على الصليبيين في جبل عامل:

بعد معركة عين جالوت (١٢٦٠ م) والتي كانت حاسمة بالنسبة لكل من المغول والفرنج إذ أبعدت المغول نهائياً عن بلاد الشام

(١) من الحوادث العاملية، ص ٩٦٠.

(٢) لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ٢٠٠.

وأنهت وجودهم فيها فتراجعوا إلى ما وراء الفرات بينما سمحت للمماليك بالتفرغ التام للقضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام ونتيجة للصراع الداخلي والاضطراب والفوضى الذي انتاب الفرنجة، بعد الحرب التي اشتعلت بين المستعمرات الإيطالية والتي أدت إلى انقسام الفرنج إلى قسمين، حيث إن تجزؤهم هذا أدى في نهاية القرن الثالث عشر إلى بروز ذلك على صعيد المملكة إذ إن صور كان لها ملك تعترف به وحدها وملك آخر تعترف به عكا وصيدا نتيجة لذلك لم يستطع الفرنجة الوقوف في وجه القوة المملوكية الساحقة. وبما أن بيبرس (١٢٦٠ م - ١٢٧٧ م) كان المؤسس الحقيقي لدولة المماليك، والذي استطاع أن يقف في وجه الهجوم المغولي ورده شرقاً عمد إلى توحيد سورية التي حررها مع مصر عندما أصبح في وضع يستطيع معه أن يعدَّ العدة لمهاجمة الصليبيين فأخذ يضرب الحصار على المدينة تلو الأخرى إلى أن أخضع جميع المواقع الحصينة التي كانت بيد الصليبيين. فقام في عام ١٢٦١ م بإعادة بناء قلعة شقيف تيرون التي هدمها المغول لدى هجومهم على صيدا عام ١٢٦٠ م وكانت هذه القلعة بيد الفرسان التوتون منذ عام ١٢٥٧ م عندما باعها جوليان دوساجيت لهم. وفي ذلك يقول المقريزي[1]: أغار العسكر على بلاد الساحل على الفرنج حتى وصل إلى أبواب عكا وشرع السلطان في البناء في شقيف تيرون، وكان قد خرب من سنة ٦٥٨ هـ (أي ١٢٦٠ م) فلما تمَّ بناؤه حمل إليه زردخاناه[2] وذخائره وبعث إلى عسكر الساحل مائتي

---

(١) المقريزي، السلوك ص ٥١١.

(٢) كلمة فارسية تعني مخزن السلاح.

ألف دينار وزعت عليهم وهذه القلعة أول القلاع في جبل عامل تسقط في يد المماليك.

وفي عام ١٢٦٣ م سقطت الكرك وهدمت، وفي عام ١٢٦٥ م احتلت قوى بيبرس قيسارية وأرصوف وذلك بعد محاولات لعقد اتفاق بين بيبرس والفرنج باءت بالفشل بسبب عدم موافقة الفرنج على إطلاق أسرى المسلمين الذين كانوا في غالبيتهم من أصحاب المهن. مما أدى إلى شن حرب شاملة ضد الفرنج في جبل عامل.

ففي عام ١٢٦٦ م هاجم بيبرس مدينة صفد فاحتلها وتابع زحفه مهاجمة معظم المدن والقلاع التابعة للفرنج وفي ذلك يقول المقريزي[١] في أخبار سنة ٦٦٤ هـ: «وخرج السلطان في مستهل شعبان ورحل في ثالثه إلى غزة، وقدم الأمير إيدغدي العزيزي، والأمير قلاوون في عدة من العسكر إلى العوجاء ومضى السلطان إلى الخليل. ووصل العسكر إلى حمص وأغاروا على الفرنج ونزلوا على حصن الأكراد وأخذوا قلعة عرقة.. فلما ورد الخبر بذلك جرَّد السلطان الأمير علاء الدين البندقدار والأمير عز الدين أوغان في عدة من العسكر إلى صور فأغاروا على الفرنج وغنموا وأسروا كثيراً، وتوجه الأمير إيتاش إلى صيدا وسار السلطان إلى عكا.. وأرسل الأمير فخر الدين الحمصي إلى جبل عاملة فأغارت العساكر على الفرنج وكثرت المغانم بأيديهم حتى لم يوجد من يشتري البقر والجاموس».

---

(١) المقريزي، السلوك ص ٥٥٤.

أما صيدا التي كان المغول قد أحرقوها فكانت قد انتقلت إلى ملكية فرسان الداوية مع قلاعها، شقيف أرنون، وشقيف تيرون، وقلعة أبو الحسن، فقام هؤلاء الفرسان بالدفاع عنها عندما بدأ بيبرس يهاجم قلاعها الواحدة تلو الأخرى. ويذكر المقريزي: «إن حصن أرصوف وقلعة الشقيف هما الحصنين الوحيدين اللذين استطاعا أن يقاوما حصاراً دام خمسة أسابيع وقد سلط بيبرس على قلعة الشقيف ٢٦ منجنيقاً[(١)]. وكانت القلعة تضم ٤٨٠ رجلاً و ٢٢ فارساً من الداوية استسلموا جميعاً للجنود بينما أرسلت النساء والأطفال محملة على الجمال إلى صور وأرسل معهم من يحميهم».

ولقد سقطت قلعة شقيف أرنون سنة ١٢٦٨ م وبعدها تم عقد هدنة بين الفرنج وبيبرس إلا أنها لم تدم طويلاً إذ سرعان ما كانت تنهار الاتفاقات ويتجدد القتال، ففي العام ١٢٦٨ م عقدت اتفاقية بين بيبرس والفرنج اتفق فيها على أن تكون المناطق الساحلية من صيدا بيد الفرنج والمناطق الجبلية المقابلة لها بيد السلطان وكانت مدتها عشر سنوات وقد ذكر المقريزي ذلك بقوله[(٢)]: «ووردت رسل صاحب عكا بهدية فحصل الاتفاق على أن تكون حيفا للفرنج ولها ثلاث ضياع وأن تكون مدينة عكا وبلادها مناصفة هي وبلاد الكرمل وأن بلاد صيدا الوطاة للفرنج (أي الساحل) والجبليات للسلطان وأن الهدنة لعشر سنين وأن الرهائن تطلق».

وفي العام ١٢٦٨ م سقطت إنطاكية أقدم دولة لاتينية أسسها

---

(١) نفس المصدر ص ٥٦٥ - ٥٦٦.
(٢) المقريزي، السلوك ص ٥٧١.

الفرنج وقتل من سكانها ومن أفراد حاميتها ١٠٦ ألف نسمة ويقال أن مئة ألف نسمة سيقت إلى الأسر فبيع الفتى باثني عشر درهماً والفتاة بخمسة وقد غنم الفاتحون كثيراً حتى إنهم كانوا يكيلون الدراهم للجنود بالأقداح أما المدينة نفسها فقد أحرقت بقلاعها وكنائسها المشهورة ولم يقم لها قائمة بعد ذلك[1].

وفي عام ١٢٧١ م سقط حصن الأكراد القلعة المنيعة التي كانت تحتلها الداوية بعد حصار دام خمسة عشر يوماً. كذلك سقطت ..سياف أيضاً، عند ذلك سارعت كل من طرطوس وقلعة المرقب .. كانت تحتلها جماعة من الداوية لعقد صلح مدته عشر سنين وعشرة أيام وعشرة أشهر ابتداءً من ١٢٧٢ م[2].

ي - سقوط جميع المراكز الصليبية في جبل عامل بيد المماليك:

كان قلاوون وصياً على ابن بيبرس بعد وفاة أبيه سنة ١٢٧٧ م ولكنه خلعه وأقام نفسه سلطاناً مكانه عام ١٢٧٩ م. وهنا بدأ صراع المدن الذي اشتد بين عكا وصور حتى إنه تعدى كل مدن المملكة، فالخلاف بين كونت طرابلس وعائلة أمبرياتشي في جبيل دفع بوهيموند السابع إلى احتلال طرابلس مما أغضب الجنويين في صور لأن عائلة أمبرياتشي هي جنويه. كما قام بوهيموند بالهجوم على صيدا التي كانت تحت سيطرة فرسان الداوية منذ عام ١٢٦٠ م واحتل قلعة البحر (Chateau de la mer) وأسر معظم فرسان الداوية الذين التجأوا إليها ونقلهم إلى طرابلس. وبعد أن

---

(١) أبو الفدا، الجزء الرابع ص ٤ - ٥.

(٢) المقريزي السلوك ص ٥٩١ - ٥٩٢.

انحصرت مناطق الفرنج منذ عهد بيبرس بالشريط الساحلي الممتد من بيروت إلى يافا أخذ الفرنج يطلقون على مناطقهم أسم «إمارة مملكة أورشليم» التي بدأ يتنافس على حكمها منذ ١٢٧٧ م ملكان، ملك تؤيده عكا هو شارل دانجو وملك تؤيده صور هو هيوغ الثالث وظل كل منهما يسعى للقضاء على الآخر. وفي عام ١٢٨٣ م سنحت الفرصة لهيوغ الثالث بتوحيد الإمارة وبضم عكا إلى صور وتابع طريقه جنوباً محاولاً اجتياح الساحل، لكن جيش قلاوون الذي عقد مع حكام عكا هدنة أجبر هيوغ الثالث للعودة إلى صور(١).

وفي عام ١٢٨٢ م جدد قلاوون معاهدة الهدنة بين المسلمين وصاحب طرطوس لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر.

وبعد ثلاث سنوات أي عام ١٢٨٥ عقد هدنة مع أميرة صور مرغريت التي كانت تحكم بيروت أيضاً(٢) وهي معاهدة هامة جداً في تاريخ العلاقات والاتفاقات بين الفرنج والمسلمين لعلاقتها ببعض مناطق جبل عامل الساحلية ولأنها حددت المناطق في جبل عامل التي أصبحت بيد السلطان، هذه المعاهدة التي تعهدت بموجبها صاحبة صور بعدم بناء أية قلعة أو أية أسوار أو دفاعات في المناطق التابعة لها من الإمارة، كما تعهدت بعدم تقديم أية مساعدة للفرنج الذين يهاجمون أراضي السلطان.

(١) M. Chehab. Tyr à l'époque des croisades p. 554.

(٢) المقريزي، السلوك المجلد الثاني القسم الثالث ص ١٧٢ ـ ١٧٧.

ك ـ لمحة عامة عن المعاهدة بين
قلاوون وأميرة صور (مرغريت):

أورد ابن عبد الظاهر[1]. نصوص المعاهدة التي جرت بين السلطان المملوكي قلاوون ومرغريت حاكمة صور عام ١٢٨٥ م، هذه المعاهدة التي اتفق على ان تكون مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات تبدأ من ١٨تموز سنة ١٢٨٥ م. وقد عددت المناطق اللبنانية التابعة للسلطان في بلاد الشام والتي تشملها الهدنة بكل ما فيها من سكان وحيوانات وغيرها حيث تكون آمنة مطمئنة وكذلك إمارة صور بكل ما فيها، كما حددت الهدنة أو المعاهدة القرى التي تملكها حاكمة صور بكاملها وقرى يأخذها السلطان وتتبع لأملاكه الخاصة وتقسم بقية المناطق مناصفة بين السلطان ومرغريت بما فيها من الأراضي التي تزرع فيها البقول والمعاصر التي لا دمنة فيها والحكورات والطواحين التي حول مدينة صور[2] كما نصت المعاهدة على أن القرى التي اتفق على إعطائها للسلطان هي خمسة: قانا ومزرعتها، أصريفيا ومزرعتها (أي صريفا) هانا نحن (محرونة) مجادل، كفروبين (كفردونين) وتكون هذه القرى بجميع أراضيها وحدودها وحقوقها وكل ما هو داخل فيها ومنسوب إليها[3].

أما فيما يختص بالملكة مرغريت فقد نصت المعاهدة على أن يكون لها عشر ضياع من قرى مرج صور وهي: عين أبي عبدالله.

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام ص ١٠٣.
(٢) نفس المصدر ص ١٠٥.
(٣) نفس المصدر ص ١٠٦.

القاسمية، سدس، فحلب، المرفوف، الجارودية، الحمادية، مرفلة، رأس العين برج الاستبار وكما يلاحظ قليل من هذه القرى ما زال يحتفظ باسمه حتى اليوم وهي كلها كانت تقع في محيط مدينة صور. هذه القرى تكون بما فيها خاصة لملكة صور (دام مراريت) كما سماها المسلمون وكما ورد اسمها في المعاهدة. أما بقية القرى والتي ورد تعدادها في الاتفاقية[1] وهي ثماني وسبعون ضيعة ومزرعة فتكون مناصفة بين السلطان ومرغريت ومن هذه القرى كما يلاحظ ما زال محتفظاً باسمه حتى اليوم أو محرفاً قليلاً نذكر منها المالكية - بابوليه (باتولية) العثية (العزية)، دير قانون، حيوية (حناوية). ربعين (زبقين) صديقي (صديقين) وسكيانية (رشكنانية) عثليت ومزرعتها (عيتيت) الخميرا (الحميرة) بابوح (يانوح) البارورية (البازورية) كفردهال ربما تكون (دبعال) جويا، مجدل (ربما تكون بلدة المجادل) طرسا (أي طير زبنا) مارون (قلعة مارون قرب ديركيفا) أشحور (شحور) دوردغيا (دردغيا) أبروخيه (قبريخا) حلوسية (معروب)، درخالون ربما تكون (ديرقانون النهر) طرديا (طيردبا) بدياس طورا، العباسة (العباسية)[2] أما بقية القرى والتي لم أوردها فأسماؤها غير معروف اليوم بين قرى قضاء صور أو جوارها. ولقد حددت الاتفاقية حدود هذه البلاد من جهة القبلة قرية مرفلة وقرية دير عمران ومن الشرق قرى عنافة سكاسة «وكفردبين ومن الغرب البحر ومن الشمال أصريفيا (أي صريفا)

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام ص ١٠٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل الإطلاع على ابن عبد الظاهر تشريف الأيام ص ١٠٦ - ١٠٧.

ونهر القاسمية وتكون هذه القرى جميعها بمزارعها وحقوقها وأراضيها وطواحينها وأنهارها وبساتينها، ومتحصلات مغلاتها من وجوه العين والغلة مناصفة بين مولانا السلطان الملك المنصور وبين الملكة دام مراريت مالكة صور يقسم جميع المتحصل بها من وجوه العين والغلة وحقوق وزكاوات وحكورات وأجر وضمانات وخراجات وجبايات ومواريث وغير ذلك من سائر الحقوق قليلها وكثيرها نصفين بين الجهتين بالسوية. كما نصت أيضاً على أن البلاد المختصة بمالكة صور آمنة مطمئنة هي ومن فيها من عسكرها وخيالتها ورجالتها ورعيتها وتجارها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ومواشيهم في حالتي صدورهم وورودهم وسفرهم وإقامتهم إلى آخر هذه الهدنة، وعلى أن المراكب من الجهتين المترددة في البحر تكون كل فرقة منها من الفرقتين آمنة من الفرقة الأخرى مطمئنة في البحور والمراسي والدخول والخروج تلتزم كل طائفة كف الأذية عن الأخرى، وإذا مات أحد من الجهتين في الجهة الأخرى ولم يكن له وارث فالحكم فيه كحكم المسلم إن كان مسلماً وإن كان من أهل صور ومن رعية الملكة مالكة صور يسلم له المال إن كان موجوداً ولديوانها إن كان مفقوداً. وإن قتل أحد من الجهتين ووجد القاتل فإن كان القاتل مسلماً يحكم فيه نواب مولانا السلطان الملك المنصور ـ نصره الله ـ بما تقتضيه سياسة السلطنة الشريفة المطهرة. وإن كان نصرانياً من أهل صور تحكم فيه الملكة دام مراريت مالكة صور بحضور نواب من الطرفين، يتولى نواب مولانا السلطان تأديب المسلم ويتولى نواب الملكة / مالكة صور تأديب النصراني[1].

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام ص ١٠٨.

على أن مولانا السلطان لا يفسح لأحد من عساكره ولا من جنوده ولا من أهل بلاده من التطرق لبلاد صور المعينة في هذه الهدنة بأذية ولا ضرر ولا سرقة ولا عدوان ولا غدر لا في برٍ ولا بحر ولا يتعرض أحد من عساكر مولانا السلطان وجنوده ومعاهديه للملكة دام مراريت مالكة صور لا في نفسها ولا في خيالتها وأصحابها خلا الإسماعيلية الذين تحت مولانا السلطان، ولمولانا السلطان أن يجهز من شاء منهم إلى مالكة صور بالسوء والضرر متى أراد وعلى أن الملكة دام مراريت تلتزم حفظ بلاد مولانا السلطان من جهتها من متجرم أو مفسد أو رجل غريبة وسائر الإفرنجية يتطرق من بلادها إلى بلاد مولانا السلطان بأذية أو إغارة أو فساد أو عدوان. وعلى أن الملكة دام مراريت لا توافق أحداً من سائر الفرنجية على أمرٍ فيه أذية لبلاد مولانا السلطان أو ضرر على ممالكه أو رعاياه وسائر من فيها وما فيها ولا تساعد أحداً على ذلك برمز ولا كتابة ولا إشارة ولا رسالة إلى حين انقضاء هذه الهدنة[1].

وأخيراً تستقر هذه الهدنة بشروطها المحررة وقواعدها المقررة لا تنتقص أحكامها ولا ينفك نظامها بموت أحد من الجهتين ولا بعزل والٍ ولا تولية غيره ولا برجلٍ غريبة ولا بيد غالية بل تستمر مدتها وتوَفى عدتها وهي عشر سنين كوامل متتاليات أولها الرابع عشر من جمادي الأولى سنة ٦٨٤ للهجرة النبوية وآخرها الرابع عشر من جمادي الأولى سنة ٦٩٤ هـ. ويلتزم كل من الجهتين حفظها إلى آخرها ومن توَلى بعد الآخر حفظها إلى آخرها[2].

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام ص ١٠٩.
(٢) نفس المصدر ص ١١٠.

ل ـ نهاية الصليبيين في جبل عامل:

وفي عام ١٢٨٥ م ضرب الحصار على قلعة المرقب التي كانت تفاوض المغول الذين استولوا على حلب وقد دام الحصار ثمانية وعشرين يوماً. وفي سنة ١٢٨٩ م سقطت طرابلس، وبسقوطها لم يبقَ بيد الإفرنج مراكز عسكرية مهمة سوى عكا التي حاصرها السلطان الأشرف (١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م) ابن قلاوون شهراً ثم ما لبث أن استسلمت في الثامن عشر من أيار سنة ١٢٩١ م[1].

ولما فتح السلطان الأشرف عكا هب الإفرنج في الساحل وقاموا بثورة ضده، استطاع القضاء عليها ورفض أية مفاوضات بعدها معهم وألقى في السجن سفارة أرسلوها إليه، وفي نيسان ١٢٩١ أثر حصار عكا اشترك أمير صور شقيق هنري الثاني بالدفاع عنها، وتولى الدفاع عن البرج الضخم المسمى البرج الجديد أو «البرج المستدير» وهو الذي ركز المسلمون هجومهم عليه. وبعد الاستيلاء على عكا أخلى الفرنج صيدا فاحتلها السلطان فأخربها وجزيرتها وقلعتها الجنوبية والشمالية واستولى على بيروت فهدم أسوارها ودك قلعتها وكانت حصينة جداً، أما صور فقد تركها نائب الملك آدم دوكافران De Caffran وترك السكان لمصيرهم وذهب إلى قبرص مع من استطاع الإبحار معه من الأغنياء والفرسان. وفي ذلك يقول المقريزي[2]: فتحت صور وحيفا وبعض صيدا بغير قتال وفرَّ أهلها خوفاً على أنفسهم.. ثم إن طائفة من الفرنج عصوا في برج منها

(١) فيليب حتي، تاريخ لبنان ص ٣٧٦.

(٢) المقريزي السلوك ص ٧٦٥.

علي الزين، من الحوادث العاملية مجلة العرفان ١٩٦٣.

(صيدا) فأمر السلطان بهدم صور وصيدا وعثليت (عيتيت حالياً) وحيفا وتوجه الأمير شمس الدين بن الجمقدار في ٢١ جمادي الأولى سنة ٦٩٠ هـ وهدم صور وفي صيف ١٢٩١ م اكتمل الجلاء الصليبي عن الشرق وذلك بعد أن أرسل السلطان الأشرف خليل قائده سنجر الشجاعي إلى بيروت وتسلمها سلماً وأجلى سكانها الصليبيين عنها إلى دمشق ثم إلى مصر وبعدها أرسلهم إلى قبرص. وهدم المماليك صور وصيدا وتحصينات بيروت أما جبيل فقد أبقوا أهلها فيها[1].

الأسلوب الدفاعي عند الصليبيين

كانت القلعة أكثر من حصن بالمعنى العسكري الحديث، فهي التي مكنت مالكها من الوفاء بكل من الحاجات العامة وحاجاته الشخصية الخاصة. فمن جهة كان بوسعه أن يحتفظ في داخلها بالقوة اللازمة للسيطرة على المنطقة المحيطة وضبط الأمن فيها وحمايتها، ومن جهة أخرى استخدم تلك القوة نفسها في الاستفادة من تلك المنطقة واستغلال سكانها. ولقد اعتمد الصليبيون في أسلوبهم الدفاعي على قلاعهم وأبراجهم إذ كان في كل بارونية (صيدا أو صور) الاعتماد على القلعة الداخلية في المدينة وأسوار حولها وقلعة ضخمة على مرتفع مشرف يتحكم بالمواصلات البرية التي تربط الداخل بالمدينة الساحلية، وحول هذه القلعة تقوم الأبراج العديدة المتحكمة بمختلف المواصلات والممرات الطبيعية.

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ٢٠٦.

وتكون هذه الأبراج على اتصال دائم بالقلعة المركزية وبذلك تكون القوى الصليبية المتواجدة في القلاع والأبراج على أهبة التدخل في أي وقت وفي أي مكان معتمدة على سرعة الحركة وعلى سرعة الالتفاف والتطويق بدلاً من الاعتماد على الجيوش وما يتبعها من بطء الحركة والتعبئة خاصة وأن الصليبيين كانوا دائماً يشكون من قلة العدد البشري في صفوفهم أي إن الخطة الدفاعية الصليبية كانت تقوم على النوعية وليس على الكمية(١).

وهكذا فإن الصليبيين لم يعتمدوا في دفاعهم عن المناطق التي احتلوها في بناء قلاع مرتبطة بالدرجة الأولى بحدودهم، إذ لو كان ذلك صحيحاً لما أمكن للقوة الإسلامية الزاحفة من دمشق إلى بانياس أن تصل إلى صيدا وصور عبر الطريق الرئيسي، في حين كان بوسعها أيضاً أن تشق طريقها عبر أعالي نهر الأردن إلى سهل عكا. كما أن صلاح الدين في تصديه للصليبيين أعوام ١١٨٢ م و١١٨٣ م و١١٨٧ م لم تقف في وجهه أساليب دفاعهم المحصنة. وكانت الطريق التي اعتمدها المسلمون في غزواتهم ضد الصليبيين هي التي تصل دمشق بشمالي فلسطين عبر جبل عامل أكثر من اعتمادهم في الطرق الواصلة بين حمص وطرابلس. فالطرق الأولى لم تكن محصنة في بادىء الأمر ومع تزايد الضغط الإسلامي أدرك الإفرنج أنهم بحاجة إلى قلاع تحميهم فكان أن بنوا قلعتين جديدتين الأولى في هونين والثانية سميت برمخاضة يعقوب وعززوا قلعة الإستبارية في بلفور الشقيف(٢).

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ص ٢١٠.
(٢) ر. سي سميل، الحروب الصليبية ص ٢١٢.

فالأسلوب الدفاعي للصليبيين كان يعتمد على بناء عدة أبراج في محيط القلعة وفي داخلها مهمتها دق ناقوس الخطر فيها لو تحرك الأعداء لمهاجمتها فبنوا بشكل مثلث برجاً في سهل الميذنة[1] سمي برج الميذنة وفي كفرصير[2]. وهذان البرجان يشكلان قاعدة المثلث وبرج بالقرب من بلدة كفروة[3] هو قمة المثلث وبذلك تكون قلعة الشقيف مواجهة لهذه الأبراج وكل تحركٍ معاد لا بد لهذه الأبراج من التحرك وإعطاء الإشارة اللازمة للقلعة بالتحرك للدفاع عن نفسها ولمهاجمة الأعداء.

جبل عامل بعد انتهاء الحكم الصليبي

بعد القضاء على الفرنج من قبل المماليك وإزالة وجودهم من جبل عامل وبلاد الشام لا بد من التوقف أمام ما رواه الرحالة ابن بطوطة الذي زار المنطقة بعد فترة من نهاية الصليبيين في رحلته عام ١٣٢٧ م وفيها ما يعبر عن وضع تلك البلاد وما آلت إليه قائلاً: «ثم سافرت إلى عسقلان.. وهي الآن خراب.. ثم سافرت على الساحل فوصلت إلى مدينة عكا وهي خراب.. وكانت عكا قاعدة بلاد الإفرنج بالشام وهي خراب ثم سافرت منها إلى مدينة صور وهي خراب وبخارجها قرية معمورة. ثم سافرت منها إلى مدينة طبرية وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها إلا رسوم تنبىء عن عظمتها وعظم شأنها».

---

(١) في وادي الجرمق.

(٢) إحدى قرى قضاء النبطية.

(٣) إحدى قرى قضاء النبطية أيضاً.

وبهذه الصورة التي رسمها لنا ابن بطوطة عما شاهده على الساحل تتكون لدينا الفكرة الواضحة عما تركه الغزاة لبلادنا من تدمير وخراب شأنهم في ذلك شأن كل المحتلين لأرض ليست أرضهم ولبلاد ليست بلادهم محاولين القضاء على حضارة الشرق تحت ستار الدين، وكم هو القاسم المشترك بينهم وبين غزاة جبل عامل اليوم من الصهاينة الذين يقومون بنفس الأعمال من تدمير وخراب لمعالم الجبل الأشم الساطع الذي لن يؤثر به أي محتل مهما طال احتلاله بل سيبقى رمزاً للصمود، أبياً شامخاً إلى العلى، بقوة شعبه وإيمانه المطلق مهما قسا الدهر وتكاثرت وحيكت حوله المؤامرات.

وهكذا فإن الدور الهام والأساسي الذي كان لجبل عامل ولم يزل حتى اليوم يوضح لنا الأسباب الحقيقية الكامنة وراء التطلع إلى السيطرة عليه عبر العصور المتعاقبة فهو نقطة الوصل بين مملكة القدس في الجنوب ومملكة دمشق وهو المنفذ الطبيعي إلى مملكة القدس وهو الطريق الرئيسية إلى بلاد الشام عبر السواحل اللبنانية مروراً بمدنه الكبرى صور وصيدا، وهو منطقة دفاعية تجاه مملكة دمشق خلال فترة مائة وست وتسعون سنة (١٠٩٧ - ١٢٩١ م).

ولقد أثبت هذا الجبل كرهه لكل الاحتلالات قديمها وحديثها ولكل معتدٍ حاول أن يدنس أرضه العربية وضحى ودافع عن عروبته متمسكاً بالعقيدة الإسلامية وكافح لطرد الغزاة الذين كثيراً وكثيراً جداً ما وقفوا أمام أسوار مدنه شهوراً بل سنين غير قادرين بجحافلهم وقواتهم العسكرية وأساطيلهم وعادوا مرتدين من حيث

(١) ابن بطوطة، رحلته ص ٥٠ - ٥١.

أتوا نظراً لقوة وعزيمة شعبه الذي يعتبر الشهادة حقاً وواجباً على كل فرد من أبنائه ليعيش حراً كريماً بعيداً عن الصراعات الدولية التي جلبت له الهموم والمآسي عبر العصور. وهو اليوم يثبت للعالم بصورة عامة وللعرب بصورة خاصة أن المعتدي والمحتل لا يترك أرضاً اغتصبها إلا بقوة مضادة لقوته ولا يمكن استرجاع أي شبر من الأراضي المغتصبة إلا بقوة الشعب الذي برهن بأن المقاومة الوطنية الشاملة للغزاة هي السبيل الوحيد لطردهم.

فالمقاوم الوطني العربي لن يسمح في جبل عـامل للصهـاينة المستعمرين الجدد أن يثبتوا أقدامهم مهما بلغت قوتهم وممارساتهم الإرهابية ومحاولاتهم إذلال شعبه، فالشعب لن يقهر ولن يفرط بشبر من أراضيه مهما كان الثمن باهظاً. فلقد أظهرت المقاومة شجاعة ومقدرة أضيفت إلى صفحات التاريخ العربي والإسلامي المجيدة.

وأخيراً أتمنى أن أكون قد وفقت في هذا البحث لأعطي دليلاً على أن الأطماع في احتلال أرض جبل عامل والمقاومة لها لم تكن حديثة بل هي قديمة وثابتة ثبوت جبل عامل نفسه.

المصادر العربية

- ابن الأثير (علي بن محمد عبد الكريم الشيباني) ت = ٦٣٠ هـ/١٢٣٣

الكامل في التاريخ ١٢ ج

بيروت (دار صادر - دار بيروت) ١٩٦٥

- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد اللواتي الطنجي)

رحلته - بيروت (مطبعة صادر) ١٩٦٠

- ابن جبير (محمد بن أحمد بن جبير الكناني) ت = ١٢١٧ م.

رحلته - بيروت (دار صادر - دار بيروت) ١٩٦٤

- ابن تغري بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكى ت = ٨٧٤ هـ/١٤٧٠ م

النجوم الزاهرة في أخبار سلوك مصر والقاهرة ١٢ ج.

القاهرة (دار الكتب المصرية) ٩٥٩

- ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم) ت = ٦٨٤ هـ/١٢٨٥ م

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

مصر (الدار المصرية للتأليف والترجمة) ١٩٦٤.

- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة دمشق ١٩٧٨ تحقيق يحيى عبارة.

ـ ابن عبد الظاهر تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور
القاهرة ١٩٥٦
ـ ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي)
ت =٥٥٥ هـ/١١٦٠ م
ذيل تاريخ دمشق
نشرة آمدروز بيروت (المطبعة الكاثوليكية) ١٩٠٨ م
ـ منقذ، أسامة ت = ١١٨٨ م.
كتاب الاعتبار
بغداد مكتبة المثنى (نقلاً عن نسخة برنستون) ١٩٣٠
ـ الأصفهاني، عماد الكاتب.
ـ الفتح القسي في الفتح القدسي القاهرة ١٩٦٥
ـ ابن الحسن محمد ـ (الحر العاملي).
أمل الآمل بغداد (مكتبة الأندلس) ١٩٦٥
ـ المقريزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي)
ت =٨٤٥ هـ/١٤٤١ م
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك
القاهرة (لجنة التأليف والنشر) ١٩٣١
ـ ياقوت الحموي (أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله)
ت =٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م.
معجم البلدان ٥ ج
بيروت (دار صادر) ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م

ـ آل صفا، محمد جابر تاريخ جبل عامل دار متن اللغة بيروت ١٩٦٣.
ـ الأمين، محسن خطط جبل عامل الدار العالمية للنشر بيروت ١٩٨٣
ـ الأمين حسن دائرة المعارف الإسلامية مطبعة الإنصاف بيروت ١٩٧٥.
ـ حتي، فيليب تاريخ لبنان دار الثقافة بيروت ١٩٨٥.
ـ من الحوادث العاملة مطبعة العرفان صيدا ١٩٦٨.
ـ الزين، علي ـ حمد البك والثورة ١٨٤٠ مطبعة العرفان صيدا ١٩٦٩.
(مجلة العرفان) مطبعة العرفان صيدا ١٩٦٩.
ـ مع التاريخ العاملي مطبعة العرفان صيدا ١٩٥٤.
ـ سالم، عبد العزيز تاريخ الدولة العربية دار النهضة العربية بيروت ١٩٧١.
ـ ضاهر، سليمان تاريخ قلعة الشقيف المكتبة العصرية صيدا ١٩٥٩.
ـ عاشور، سعيد ـ تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٢.
ـ عاشور، سعيد ـ أوروبا في العصور الوسطى بيروت ١٩٧٢.
ـ العوًا، عادل ـ التجربة الفلسفية مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤.
ـ مرهج، عفيف ـ اعرف لبنان ٩ ج، بيروت ١٩٧٢.
ـ مكي، محمد علي ـ لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٧.
ـ مكي، محمد كاظم ـ الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل دار الأندلس بيروت ١٩٦٣.

المراجع الأجنبية المترجمة

- باركر، أرنست الحروب الصليبية الباز العريني دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٧.
- روبنصون، إدوارد يوميات في لبنان (تاريخ وجغرافيا) ج ١، ج ٢ أسد شيخاني- وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة بيروت ١٩٥١
- لورته، لويس مشاهدات في لبنان كرم البستاني وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة بيروت ١٩٥١
- أرنولد، توماس الدعوة إلى الإسلام حسن إبراهيم حسن القاهرة ١٩٤٧
- ر. سي. سميل، الحروب الصليبية سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٢

المراجع الأجنبية

Archives de l'Orient latin, publiés sous le patronage de la société de l'Orient latin.

Ernest Leroux. Paris 1881.

Economic History of Europe.

Clough; Charles. Boston 1946.

Histoires des croisades

Grousset, René Paris 1934 tome I, Paris 1935 Tome II.

The Kings Hospitallers in the Holy land

King; Edwin James

Les colonies Franques de Syries aux XII et XIII siécles

Rey. E. Paris 1883.

Tyr à l'époque des croisades

Chehab, Maurice Paris 1935.

Topographie Historique de la Syrie Antique et Medievole.

Dussaud, René Paris 1927.

الفهرس

الإهداء ٥
المقدمة ٧

الفصل الأول:
ـ جبل عامل ١١
١ ـ اسمه ١٣
٢ ـ حدوده ١٨
٣ ـ مميزاته ٢٢

الفصل الثاني
ـ الحركة الصليبية ٣١
أولاً ـ ماهيتها ٣٣
ثانياً ـ بواعثها ٣٧
أ ـ الباعث الديني ٣٨
ب ـ الباعث الاقتصادي ٤١
جـ ـ الباعث الاجتماعي ٤٢
د ـ الباعث السياسي ٤٣

ثالثاً ـ وصول القوات الصليبية إلى جبل عامل ٤٦
أ ـ سقوط صيدا ٤٧
ب ـ صمود صور ٥٠
جـ ـ سقوط صور ٥٥

رابعاً ـ ردة الفعل الإسلامية ٥٨

الفصل الثالث

ـ الآثار الصليبية في جبل عامل ٦٥
أولاً: الآثار الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ٧٠
أ ـ العلاقات الاجتماعية ٧٠
ب ـ الامتيازات الأجنبية في جبل عامل ٧٧
جـ ـ الاقتصاد في جبل عامل ٧٩
د ـ التفاعل الثقافي والاجتماعي ٨١
هـ ـ التمازج العرقي ٨٥
و ـ الأثر الديني ٨٨
ز ـ الأثر العمراني ٨٩
حـ ـ الحقد الاجتماعي ٩٣

ثانياً: الحصون الصليبية في جبل عامل ٩٤
أ ـ القلعة ودورها ٩٤
ب ـ أنماط القلاع ٩٨

ـ قلعة تبنين ١٠٠
أ ـ اسمها ١٠٠

ب ـ بناتها وتاريخ بنائها ١٠٠
جـ ـ ممَّ يتألف هذا الحصن في الوقت الحاضر؟ ١٠٣
د ـ .ممَّ كان يتألف في القرن التاسع عشر؟......... ١٠٤
هـ ـ صلاح الدين يستولي على تبنين ١٠٧
و ـ قلعة تبنين بين التدمير والتعمير............ ١٠٨
ز ـ القرى التابعة لإمارة تبنين ١١٠
حـ ـ زوار القلعة من التاريخيين ١١١

٢ ـ قلعة دوبي ١١٢
أ ـ موقعها ١١٢
ب ـ اسمها ١١٢
جـ ـ ممَّ يتألف هذا الحصن؟ ١١٥

٣ ـ قلعة الشقيف أرنون ١١٧
أ ـ موقعها ١١٧
ب ـ اسماؤها ١١٩
جـ ـ بناتها وتاريخ بنائها ١١٩
د ـ القلعة بين التدمير والتعمير ١٢١
هـ ـ ممَّ يتألف هذا الحصن؟ ١٢٣
و ـ تاريخ القلعة..................... ١٢٧

٤ ـ قلعة شقيف تيرون ١٢٩

٥ ـ قلعة هونين ١٣٠
أ ـ اسمها ١٣٠

ب ـ تاريخها ١٣٠
جـ ـ ممَّ يتألف هذا الحصن؟ ١٣٤
٦ ـ قلعة شمع ١٣٥
أ ـ موقعها ١٣٥
ب ـ ممَّ يتألف هذا الحصن؟ ١٣٦
٧ ـ قلعة مارون ١٣٧
أ ـ موقعها ١٣٧
ب ـ ممَّ يتألف هذا الحصن حالياً؟ ١٣٩
٨ ـ قلعة أبي الحسن ١٣٩
أ ـ موقعها ١٣٩
٩ ـ الآثار الصليبية الأخرى ١٤٠
في صور ـ في صيدا ـ في تل المعشوق ـ
في بنت جبيل ـ في برعشيت ـ في ديردغيا
في شقراء.
١٠ ـ القرى التابعة لإمارة صيدا الصليبية ١٤٨

الفصل الرابع

نهاية الصليبيين في جبل عامل ١٥٣
أ ـ سقوط تبنين وصيدا بين المسلمين ١٥٣
ب ـ حصار صور ١٥٥
جـ ـ سقوط قلعة هونين ١٦١

د - سقوط صفد بيد صلاح الدين الأيوبي ١٦١
هـ - محاصرة قلعة الشقيف (أرنون) ١٦٢
و - الهدنة بين صلاح الدين والصليبيين ١٦٧
ز - جبل عامل يتبع دمشق ١٦٨
حـ - خيانة الملك الصالح بتسليم قلعة الشقيف أرنون
سنة ٦٣٨ هـ إلى الصليبيين ١٧٥
ط - بيبرس يحاول القضاء على الصليبيين ١٧٨
ي - سقوط جميع المراكز الصليبية في جبل عامل بيد المماليك ١٨٢
ك - لمحة عن المعاهدة بين السلطان قلاوون وأميرة صور . . . ١٨٤
ل - نهاية الصليبيين في جبل عامل ١٨٨
- الأسلوب الدفاعي عند الصليبيين ١٨٩
- جبل عامل بعد انتهاء الحكم الصليبي ١٩١
- المصادر العربية ١٩٥
- المراجع الأجنبية المترجمة ١٩٨
- المراجع الأجنبية ١٩٩

صدر حديثاً عن:

دار مصباح الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب ١١٣/٦٥٥٨ ـ بيروت ـ لبنان

ـ ثورة العرب ضد الأتراك

تأليف: أحد أعضاء الجمعيات العربية السرية

حققه وقدم له: د. عصام شبارو

ـ تاريخ بيروت

من العهد القديم حتى القرن العشرين

تأليف: د. عصام شبارو

ـ فن الطهي

إعداد: أمل الحلبي كريدية

* * ** * *

من منشورات دار مصباح الفكر:

ـ الجذور التاريخية للمشروع الصهيوني في لبنان

تأليف: بدر الحاج

ـ العرب والنفط والعالم

تأليف: عصام نعمان

ـ دولة الخزر الجديدة (إسرائيل)

تأليف: عبد الرحمن شاكر

- تسعون ميخائيل نعيمة

إعداد: رياض فاخوري

- النفس الطاهرة (بين جبران والحويك)

تأليف: رياض فاخوري

صدر للمؤلف

المعارك والأسر بين العرب والروم

الدار العالمية ١٩٨٥